آفات على الطريق

الدكتور : السيد محمد نوح

الجزء الثالث

الآفة الخامسة عشرة: سوء الظن
الآفة السادسة عشرة: الغيبة
الآفة السابعة عشرة: النميمة
الآفة الثامنة عشرة: فوضى الوقت
الآفة التاسعة عشرة: التسويف
الآفة العشرون: التشاؤم
الآفة الحادية والعشرون: التنطع أو الغلو في الدين

الآفة الخامسة عشرة
سوء الظن

والآفة الخامسة عشرة التي يبتلى بها نفر من العاملين، وتصيبهم، وتصيب العمل الإسلامي بآثار مهلكة، وعواقب وخيمة، إنما هي: "سوء الظن".
وحتى يتخلص من هذه الآفة من ابتلوا بها، ويتجنبها من سلمهم الله منها، فإننا سنتناولها من الجوانب التالية:

أولا: تعريف سوء الظن:

يطلق الظن لغة على معان عدة نذكر منها:
1 - الشك، تقول: بئر ظنون: لا يدرى أفيها ماء أم لا؟، ومنه قوله تعالى: {من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيـده ما يغيظ} (الحج: 15).
2 - التهمة، تقول: أظنَّ به الناس، تعني: عرضه لتهمتهم، ومنه قوله تعالى: {إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا} (الأحزاب: 10)، {اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم} (الحجرات: 12).
3 - الحسبان أو ا لعلم بغير يقين، تقول: ظننت الشمس طالعة أي حسبتها أو علمتها علما غير يقيني، ومنه قوله تعالى: {وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين} (الأنبياء: 87)، {وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله} (الحشر: 2)، {ومالهم به من علم إن يتبعون إلا الظن} (النجم: 28).

4 - اليقين، تقول: ظن فلان الشيء بمعنى تيقنه، ومنه قوله تعالى: {واستعيوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم إليه راجعـون} (البقرة: 45، 46)، {فأما من أوتى كتابه يمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه إني ظننت أنى ملاق حسابيه} (الحاقة: 19، 20)، {ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم} (المطففين: 1-5) . ([1])
ولا تعارض بين هذه المعاني جميعا، إذ هي تصوير لمراتب الظن من بدايته إلى نهايته، وكأن الظن: إنما هو تخمين أو هاجس أو خاطر يقع في النفس لأمارات تظهر، وقرائن تبدو، فإذا قويت، وتأكدت هذه الأمارات، وتلك القرائن أثمرت علما يقينياً أو تصديقا قطعيا، وإذا ضعفت أو تلاشت لم تثمر إلا مجرد الشك أو التوهم، أو العلم الغير يقيني.

والسوء لغة يطلق على معنيين:

الأول: أن السوء هو كل ما يقبح أو ما يقابل الحسن، قال تعالى: {من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون} (الأنعام: 160)، {ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء} (الأعراف: 95)، {ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة} (الرعد: 6).

الآخر: أن السوء هو كل ما يغم الإنسان من أمور الدارين سواء أكان في نفسه أو في غيره . ([2])

---

[1] - انظر: بصائر ذوي التمييز في: لطائف الكتتاب العزيز للفيروز أبادي 3/545 - 547، والمعجم الوسيط 2/599 بتصرف كثير.

[2] - انظر: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتااب العزيز للفيروز أبادي 3/288،289، والمعجم الوسيط 2/599 بتصرف كثير.

ولا تعارض بين المعنيين، إذ القبيح أو الشر يعود على النفس بالهم والغم، والقلق الاضطراب النفسي كما قال سبحانه: {ومن يعرش عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا} (الجن : 17)، {ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا} (طه: 124).
وإذ قد عرفنا معنى : "الظن " ومعنى "السوء" كل على حدة فإننا نقول: إن سوء الظن هو تخريص أو تخمين ينتهي بوصف الغير بما يسوءه ويغمه من كل قبيح من غير دليل، ولا برهان.

ثانيا: مظاهر سوء الظن، ووضعه في ميزان الإسلام:

لسوء الظن مظاهر عدة، وأمارات كثيرة تدل عليه، نذكر منها:
1 - القعود عن نصرة دين الله - عز وجل - في الغير أو في النفس وفي الغير معاً بدعوى أننا أهل الله وأولياؤه، وقد عملنا طويلا وتعبنا كثيرا وما حصلنا من وراء ذلك نصرة على أعدائنا بل على العكس كانت الشدائد والامتحانات شدة بعد شدة، وامتحانا بعد امتحان، كما حكى الله - عز وجل- عن نفر من الناس يوم أحد: {وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل إن الأمر كله لله يخفون في أنفسهم مالا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا} آل عمران: 154، أو بدعوى أن ذنوبنا كثيرة لن تغفر، ولا يمكن أن تغفر.
2 - الولوغ في المعاصي والسيئات بدعوى أن الله لا يرى، ولا يعلم، كما قال سبحاته: {وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين} (فصلت: 23)، أو بدعوى أنه لا بعث، ولا حساب كما قال سبحانه : {وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحـــدا} الجن: 27، {ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا} الكهف: 35، 36، {ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي وما

أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى} فصلت: 50.
3 - توقع هلاك المؤمنين، واستئصال شأفتهم أمام كثرة العدو عددا وعتادا مع تقدم هذا العدو، ونبوغه، كما قال سبحانه عن المنافقين وموقفهم من المؤمنين يوم الحديبية: {بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا وزين ذلك في قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا} الفتح: 12.
4 - الرجاء أو الخوف من الخلق ظنا أنهم يعطون ويمنعون، ينفعون ويضرون.
5 - التقصير في عمل من أعمال البر المعروفة، مثل عيادة المريض، وتشييع الجنائز، ورد السلام، وإجابة الدعوة، وبذل النصيحة، وتشميت العاطس، ومساعدة ذوي الحاجة، وإماطة الأذى عن الطريق، والتزاور ونحوها لأسباب خارجة عن الإرادة، مثل السفر أو المرض، أو القيام بواجب أكبر، أو عدم العلم، أو غير ذلك فيظن سيئ الظن أن هذا التقصير نشأ من التكبر والاستعلاء أو من الاحتقار وعدم الاهتمام، أو من البخل والشح، وهكذا.
6 - القيام بأعمال البر المعروفة من: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصدقات، وإرشاد الناس وتعليمهم والإصلاح بين المتخاصمين ونحوها، فيظن سيئ الظن: أنه إنما يفعل ذلك رياء أو شهرة أو طمعا في مغنم، والحقيقة أن البار ما كان يفعل ذلك إلا لأنه المعروف الذي دعانا الله إليه، وحذرنا من تضييعه والتفريط أو التقصير فيه.
ولقد حكى لنا القرآن الكريم ما كان يصنعه المنافقون مع المتصدقين من المسلمين، إذ كانوا يقولون: إنهم يصنعون ما يصنعون للرياء والشهرة، فأنزل الله فيهم قوله سبحانه: {الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم} التوبة : 79.

7 - إتقان السعي المعاشي من تجارة أو صناعة أو زراعة ونحوها، امتثالا لما أمر الله - عز وجل - به من السعي والضرب في الأرض في قوله: {هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور} الملك: 15، {فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله} الجمعة: 10، فيظن سيئ الظن أن هذا تكالب، وتهافت وحب للدنيا وبغض للآخرة.
8 - إتقان الشعائر التعبدية من صلاة وزكاة وصيام وحج، وقراءة للقرآن، وذكر، ودعاء، واستغفار ونحو ذلك، فيظن سيئ الظن أن هذه رهبانية وعزلة أو انقطاع للعبادة وترك للحياة الدنيا.
9 - الحرص على الحياة في الوقت الذي يقتضي الحرص على الحياة، والإقدام على الموت في الوقت الذي يقتضي الإقدام على الموت كما أمر الإسلام بذلك، فيظن سيئ الظن أن هذا جبن وأن ذاك تهور، إلى غير ذلك من المظاهر الدالة على سوء الظن.
ولقد حرم الإسلام سوء الظن بالله وبرسوله وبالمؤمنين المعروفين بصلاح الحال واستقامة الخلق، ونظافة السيرة، وإن وقع منهم تقصير في معروف أو تجاوز لمباح أو خدش لمروءة، وأمر بتدارك هذا التقصير، أو هذا التجاوز والخدش عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دون أن يتغير قلب المسلم على أخيه المسلم قيد شعرة، ولو للحظة واحدة، إذ يقول سبحانه: {إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون} الأنعام: 11، {وما يتبع أكثرهم إلا ظنا إن الظن لا يغني من الحق شيئا} يونس: 36، {يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم} (الحجرات: 12).
وإذ يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث" ، ([3]) "يقول الله تعالى: أنا عند ظن

[3] - الحديث أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب االأدب: باب ما ينهى عن التحاسد، والتدابر، وباب: {يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن{ 8/23، ومسلم في الصحيح: كتاب البر، والصلة، والآداب: باب تحريم الظن، والتجسس... 4/1985، 1986، رقم 27-31، وأبو داود في السنن: كتاب الأدب: باب في الظن 5/216،

عبدي بي" ، ([4]) "لايموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله تعالى" ، ([5]) "... ورأيت رجلاً من أمتي قائماً على شفير جهنم يرعد السعفة في يوم عاصف، فجاءه رجاؤه في الله - عز وجل-فاستنقذه من ذلك ومضى" . ([6])

وأوجب سوء الظن بكافر معلن بكفره وعداوته لله ولرسوله وللمؤمنين، وإن وقع منه معروف أو عمل من أعمال البر، لأنه إذا كان قد أنكر وجود الله أو وحدانيته، وخان نعمه التي تغمره من أعلاه إلى أدناه، فكيف يفي لنا، ويصدق معنا، وصدق الله العليم بالنفوس وخفاياها إذ يقول: }يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم{ (التوبة: 8)، }يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون{ (آل عمران)، {وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ} (آل عمران: 119).

وكذلك وجوب سوء الظن بمسلم عرف عنه المجاهرة بالمعصية، والصد عن سبيل الله، وعدم الالتزام بالإسلام، لجواز أن يكون أداة في أيدي الكافرين لتنفيذ مخططاتهم ومؤامراتهم

---

217 رقم 4917 كلهم من حديث أبي هريرة مرفوعا، هذا وللحديث تخريج أوسع في كتابنا: (غاية البيان في شرح مختارات من السنن) 1/67 فليراجعه من أراد.

[4] - الحديث أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب االتوحيد: باب قول الله تعالى: {ويحذركم الله نفسه{، وباب قول الله تعـــالى: {يريدون أن يبدلوا كلام الله{، وباب ذكر النبي صلى الله عليه وسلم وروايته عن ربه 6/2694، 2725، 2741 رقم 6970، 7066، 7098، 7099، ومسلم في الصحيح: كتاب الذكر : باب الحث على ذكر الله تعالى، وباب فضل الذكر والدعاء، والتقرب إلى الله تعالى 4/2061، 2067 رقم 2 (2675)، 19-21، وكتاب التوبة: باب في الحض على التوبة والفرح بها 4/2102 رقم 1(2675)، والترمذي في السنن: كتاب الزهد: باب ما جاء في حسن الظن بالله 4/515 رقم 2388، وكتاب الدعوات: باب في حسن الظن بالله - عز وجل- 5/542 رقم 3603، وابن ماجة في السنن: كتاب الأدب: باب فضل العمل 2/1255، 1256 رقم 3822، والدارمي في السنن: كتاب الرقاق: باب حسن الظن بالله 2/760، 761 رقم 2631، وأحمد في: المسند 2/251، 351، 391، 413، 445، 480، 482، 516، 517، 524، 534، 535، 539، 3/210، 277، 491، 4/106 كلهم من حديث أبي هريرة مرفوعا إلا الدارمي ورواية عن أحمد، فإنه عندهما من حديث واثلة بن الأسقع، وإلا رواية عند البخاري، وأحمد من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وعقب الترمذي على حديثه بقوله: " هذا حديث حسن صحيح".

[5] - الحديث أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها: باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت 4/2205، 2206 رقم 81، 82 (2877)، وأبو داود في السنن: كتاب الجنائز : باب ما يستحب من حسن الظن بالله عند الموت 3/484 رقم 3113، وابن ماجة في السنن: كتاب الزهد: باب التوكل واليقين 2/1395 رقم 4167، وأحمد في المسند 3/293، 325، 330، 390، 391 كلهم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه مرفوعا.

[6] - الحديث جزء من حديث أورده الحافظ ابن اللقيم في الوابل الصيب من الكلم الطيب، والحافظ بدر الدين العيني في عمدة الباري شرح صحيح البخاري 22/92، وعزواه إلى أبي موسى المديني قائلين: "قال أبو موسى: هذا حديث حسن جدا ".

على الإسلام والمسلمين، كما يشهد بذلك الواقع اليوم، ويكون سوء الظن بهؤلاء حينئذ من باب الحذر والحيطة، اتقاء لشرهم، وإبطالا لكيدهم ومؤامراتهم.

إذ كان من هديه صلى الله عليه وسلم حين يدخل عليه الغريب من الناس أن يحذره ويحترس منه من غير أن يطوي عنه بشره ولا خلقه.

وهكذا يدور سوء الظن بين الحرمة والوجوب، وأما الأحاديث التي وردت في الدعوة إلى سوء الظن بإطلاق فإنها ضعيفة ولا تصح مثل: "من حسن ظنه بالناس كثرت ندامته" ، ([7])
"الحزم سوء الظن" ، ([8]) "احترسوا من الناس بسوء الظن" . ([9])

---

[7] - انظر في ضعف هذه الأحاديث: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة للألباني 1/186، 187، 3/ 291 - 293 وإن كان قد عزا الحديث الثالث: "احترسوا من الناس بسوء الظن" إلى ابن سعد في الطبقات الكبرى على أنه من أقوال الحسن البصري، ثم عقب عليه بقوله: "وسنده صحيح". وحاول رده من حيث المتن بأنه مخالف للأحاديث الكثيرة الصحيحة التي وردت بإحسان الظن بالمسلمين، والتي منها، " إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا نوافقه على هذا التعليل الأخير، لأنه يمكن الجمع بين الأحاديث الكثيرة الدالة على وجوب تحسين الظن بالمسلمين وبين هذا الكلام المأثور عن الحسن البصري الدال على وجوب الاحتراس من الناس بسوء الظن، يمكن الجمع بأن الأول محمول على المسلم المعروف بالصلاح والتقوى، وحسن الخلق، ونظافة السيرة، والآخر محمول على الكافر أو على مسلم معروف بحربه لله ولرسوله، أو على مجهول الهوية أهو مسلم أو كافر ؟ على النحو الذي شرحنا في موقف الإسلام من سوء الظن، والله أعلم.

[8] - انظر في ضعف هذه الأحاديث: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة للألباني 1/186، 187، 3/ 291 - 293 وإن كان قد عزا الحديث الثالث: "احترسوا من الناس بسوء الظن" إلى ابن سعد في الطبقات الكبرى على أنه من أقوال الحسن البصري، ثم عقب عليه بقوله: "وسنده صحيح". وحاول رده من حيث المتن بأنه مخالف للأحاديث الكثيرة الصحيحة التي وردت بإحسان الظن بالمسلمين، والتي منها، " إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا نوافقه على هذا التعليل الأخير، لأنه يمكن الجمع بين الأحاديث الكثيرة الدالة على وجوب تحسين الظن بالمسلمين وبين هذا الكلام المأثور عن الحسن البصري الدال على وجوب الاحتراس من الناس بسوء الظن، يمكن الجمع بأن الأول محمول على المسلم المعروف بالصلاح والتقوى، وحسن الخلق، ونظافة السيرة، والآخر محمول على الكافر أو على مسلم معروف بحربه لله ولرسوله، أو على مجهول الهوية أهو مسلم أو كافر ؟ على النحو الذي شرحنا في موقف الإسلام من سوء الظن، والله أعلم.

[9] - انظر في ضعف هذه الأحاديث: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة للألباني 1/186، 187، 3/ 291 - 293 وإن كان قد عزا الحديث الثالث: "احترسوا من الناس بسوء الظن" إلى ابن سعد في الطبقات الكبرى على أنه من أقوال الحسن البصري، ثم عقب عليه بقوله: "وسنده صحيح". وحاول رده من حيث المتن بأنه مخالف للأحاديث الكثيرة الصحيحة التي وردت بإحسان الظن بالمسلمين، والتي منها، " إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا نوافقه على هذا التعليل الأخير، لأنه يمكن الجمع بين الأحاديث الكثيرة الدالة على وجوب تحسين الظن بالمسلمين وبين هذا الكلام المأثور عن الحسن البصري الدال على وجوب الاحتراس من الناس بسوء الظن، يمكن الجمع بأن الأول محمول على المسلم المعروف بالصلاح والتقوى، وحسن الخلق، ونظافة السيرة، والآخر محمول على الكافر أو على مسلم معروف بحربه لله ولرسوله، أو على مجهول الهوية أهو مسلم أو كافر ؟ على النحو الذي شرحنا في موقف الإسلام من سوء الظن، والله أعلم.

ثالثا: أسباب سوء الظن.

ويوقع في سوء الظن أسباب كثيرة، وبواعث عدة، نذكر منها:

1 - سوء النية وخبث الطوية:

كأن ينشأ الإنسان تنشئة غير صالحة فيقع كثيرا في المعاصي والسيئات حتى تورثه تلك المعاصي وهذه السيئات سوء الظن بمن ليس أهلا له، ويصبح ذلك مظهرا من مظاهر سوء النية وخبث الطوية، كما قال سبحانه وتعالى: {ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا} (الفتح)، {بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا وزين ذلك في قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا} (الفتح)، {وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شيء} (آل عمران: 154)، {وما يتبع أكثرهم إلا ظنا إن الظن لا يغني من الحق شيئاً} (يونس: 36)، {إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا} (الأحزاب: 10).

2 - عدم التنشئة على المبدأ الصحيح في الحكم على الأشياء و الأشخاص

ذلك أن المبدأ الصحيح في الحكم على الأشياء والأشخاص إنما يتمثل في:

أ - النظر إلى الظاهر وترك السرائر إلى الله، فهو وحده المطلع عليها العليم بكل ما فيها، فعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنما أنا بشر وإنكم

تختصمون إلي، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له على نحو ما أسمع منه، فمن قضيت له من حق أخيه بشيء فلا يأخذ منه شيئا، فإنما أقطع له قطعة من النار" . ([10])
وعن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في سرية فصبحنا الحرقات من جهينة، فأدركت رجلاً فقال: لا إله إلا الله، فطعنته فوقع في نفسي من ذلك، فذكرته للنبي صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أقال لا إله إلا الله، فقتلته؟" قال: قلت: يا رسول الله، إنما قالها خوفا من السلاح، قال: لا أفلا شققت عن قلبه، حتى تعلم أقالها أم لا "فما زال يكررها علي حتى تمنيت أني أسلمت يومئذ... الحديث . ([11])
ب - والاعتماد على الدليل أو البرهان قال تعالى: {قل هـاتوا برهـانكم إن كنتم صـادقين} (البقرة: 111)، {لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء} (النور: 13).
ج - والتأكد من صحة هذا الدليل أو ذلك البرهان، قال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا} (النساء:

---

[10] - الحديث أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب االمظالم والغصب: باب إثم من خاصم في باطل وهو يعلمه 3/171، 172، وكتاب الشهادات: باب من أقام البينة بعد اليمين 3/235، 236 وكتاب الحيل: باب منه 9/32، وكتاب الأحكام: باب موعظة الإمام للخصوم، وباب من قضي له بحق أخيه فلا يأخذه، وباب القضاء في كثير المال وقليله 9/86، 89، 90، 91، ومسلم في الصحيح: كتاب الأقضية: باب الحكم بالظاهر، واللحن بالحجة 3/1337-1338 رقم (1713)، وأبو داود في: السنن: كتاب الأقضية: باب في قضاء القاضي إذا أخطأ 3/301، 302 رقم 3583، 3584)، والترمذي في السنن: كتاب الأحكام: باب ما جاء في التشديد على من يقضى له بشيء ليس له أن يأخذه 3/624 رقم (1339)، والنسائي في السنن الكبرى: كتاب القضاء: باب الحكم بالظاهر، وباب ما يقطع القضاء 3/472، 482، رقم (5956، 5985)، وابن ماجه في السنن: كتاب الأحكام: باب قضية الحاكم لا تحل حراما ولا تحرم حلالا 2/777 رقم (2317، 2318)، ومالك في الموطأ: كتاب الأقضية، باب الترغيب في القضاء بالحق ص 509 رقم (1397)، وأحمد في المسند 6/203، 295، 291، 358، 320، كلهم من حديث أم سلمة رضي الله عنها مرفوعا واللفظ للبخاري، وزاد ابن ماجه رواية أخرى من حديث أ بي هريرة، وعقب عليها البوصيري في : مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه 3/44 قائلا: "هذا إسناد صحيح، وله شاهد من حديث أم سلمة، رواه الستة، ورجاله رجال الصحيح" وعقب الترمذي على حديثه قائلا: "حديث أم سلمة حديث حسن صحيح".

[11] - الحديث أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب االمغازي: باب بعث النبي صلى الله عليه وسلم أسامة بن زيد إلى الحرقات من جهينة 5/183، وكتاب الديات: باب قوله تعالى: {ومن أحياها} 9/4، ومسلم في الصحيح: كتاب الإيمان: باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال لا إله إلا الله 1/96 -98 رقم (96، 97)، وأبو داود في السنن: كتاب الجهاد: باب على ما يقاتل المشركون 3/44، 45 رقم (2643)، وأحمد في المسند 5/200، كلهم من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه مرفوعا، واللفظ للبخاري.

94)، {يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين} (الحجرات: 6).
د - وأخيرا عدم معارضة الأدلة، أو البراهين لبعضها البعض، هذا هو المبدأ الصحيح في الحكم على الأشياء والأشخاص، ومن يربى على غير هذا المبدأ فإن أموره وأحكامه كلهما تبنى على الظنون والأوهام التي قد تصيب مرة وتخطيء مائة مرة ومرة، ولقد أشار القرآن إلى هذا السبب وهو يناقش المشركين في دعواهم أن وقوعهم في الشرك من الله، قائلين: {لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء} (الأنعام: 148)، فرد عليهم سبحانه بقوله: {كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعـون إلا الظن وإن أنتم إلاّ تخرصـون} (الأنعام: 148).

3 - البيئة قريبة كانت أو بعيدة:

وقد ينشأ المرء في بيئة معروفة بسوء الخلق، ومنه سوء الظن، سواء أكانت هذه البيئة قريبة - ونعني بها البيت - أم بعيدة - ونعني بها الأصدقاء - فيتأثر بها، ولا سيما إذا كان في مرحلة الحضانة أو البناء والتكوين، ولما يصلب عوده ويحصن بعد ضد هذه الأخلاقيات وتلك السلوكيات، وحينئذ يصاب بسوء الظن.
ولقد بين النبي صلى الله عليه وسلم أثر البيئة على الإنسان عندما قال: "ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء " ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه: {فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الــدين القيم} (الروم: 30) ([12]) "إنما مثل الجليس الصالح،

---

[12] - الحديث أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب االجنائز: باب إذا أسلم الصبي فمات، هل نصلي عليه؟ وباب ما قيل في أولاد المشركين 2/118، 119، 125، وكتاب التفسير، سورة: {ألم غلبت الروم}، باب : لا تبديل لخلق الله}: لدين الله 6/143، وكتاب القدر: باب الله أعلم بما كانوا عاملين 8/153، ومسلم في الصحيح: كتاب القدر: باب معنى كل مولود يولد على الفطرة 4/2047 رقم (2658)، ومالك في الموطأ: كتاب الجنائز:

وجليس السوء، كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحا طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحا منتنة" . ([13])

4 - اتباع الهوى :

ذلك أن الإنسان إذا اتبع هواه حتى صار هذا الهوى إلهه الذي يعبده من دون الله، فإنه يقع لا محالة في الظنون الكاذبة التي لا دليل عليها ولا حجة، ولا برهان؛ نظرا لأن حب الشيء يعمي ويصم، كما أن البغض يستوجب التماس العثرات، وتصيد الأخطاء، فمثلا إذا مال الإنسان بهواه إلى آخر فإن هذا الميل ينسيه أخطاءه ويحمله على تحسين الظن به، وإن كان مخطئا في الواقع، ونفس الأمر، وإذا أبغض الإنسان آخر لأنه لا يميل إليه بهواه، ولم يكن هذا الإنسان منصفا، فإن هذا البغض يحمل على سوء الظن، وما يتبعه من التماس العثرات وتصيد الأخطاء وإن كان مصيبا في الواقع ونفس الأمر، من باب:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة وعين السخط تبدي المساويا

وقد لفت الحق تبارك وتعالى الأنظار إلى هذا السبب حين قال: {إن يتبعون إلاّ الظن وما تهوى الأنفس}(النجم: 23)، {فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدي القوم الظالمين} (القصص: 50) {أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله عن علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون} (الجاثية: 23).

باب جامع الجنائز ص 160 رقم (571)، وأحمد في المسند 2/ 233، 253، 275، 282، 315، 346، 347، 393، 410، 481، كلهم من حديث أبي هريرة مرفوعا، واللفظ للبخاري، وعقب الترمذي على حديثه قائلا: "هذا حديث حسن صحيح"، وله شاهد عند أحمد 3/435، 4/24 من حديث الأسود بن سريع.

[13] - الحديث أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب االبيوع: باب في العطار وبيع المسك 3/82، ومسلم في الصحيح: كتاب البر والصلة والآداب: باب استحباب مجالسة الصالحين، ومجانبة قرناء السوء 4/2026 رقم (2628) بلفظه، كلاهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا.

5 - الوقوع في الشبهات:

وقد يكون الوقوع في الشبهات عن قصد، أو عن غير قصد، بل وعدم تبرير الوقوع في هذه الشبهات إن كانت عن غير قصد، أو غير تعمد من الأسباب التي تغري الآخرين أن يقعوا في سوء الظن، ولعل هذا بعض أسرار تأكيده صلى الله عليه وسلم على البعد عن الشبهات إذ يقول: "الحلال بين والحرام بين وبينهما مشبهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى المشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا إن حمى الله في أرضه محارمه" ، ([14]) "دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإن الصدق طمأنينة، والكذب ريبة" . ([15])

بل وضربه صلى الله عليه وسلم المثل من نفسه لنقتدي به ونتأسى في البعد عن كل شبهة، إذ تقول السيدة صفية بنت حيي أم المؤمنين رضي الله عنها: كان النبي صلى الله عليه وسلم معتكفا فأتيته أزوره ليلا، فحدثته، ثم قمت لأنقلب فقام معي ليقلبني - وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد - فمر رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي أسرعا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "على رسلكما، إنها صفية بنت حيي، فقالا: سبحان الله يا رسول الله، قال: "إن الشيطان يجري من الإنسان

---

[14] - الحديث أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب االإيمان: باب فضل من استبرأ لدينه 1/20، وكتاب البيوع: باب الحلال بين والحرام بين 2/723، 724 رقم (1946)، ومسلم في الصحيح: كتاب المساقاة: باب أخذ الحلال وترك الشبهات 9/1213 - 1221 رقم (1599)، وأبو داود في السنن: كتاب البيوع: باب في اجتناب الشبهات 3/243 رقم (3329)، والترمذي في السنن: كتاب البيوع: باب ما جاء في ترك الشبهات 3/511 رقم (1205)، والنسائي في السنن الكبرى: باب البيوع: باب اجتناب الشبهات في الكسب 4/3 رقم (6040)، وابن ماجه في السنن: كتاب الفتن: باب الوقوف عند الشبهات 2/1318، 1319 رقم (3984)، والدارمي في السنن: كتاب البيوع: باب في الحلال بين، والحرام بين 2/695 رقم (2436)، وأحمد في المسند 4/267، 269، 270، 271، 275 كلهم من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه مرفوعا، واللفظ للبخاري.

[15] - الحديث أخرجه البخاري في الصحيح (معلقاً): كتاب البيوع: باب تفسير المشبهات 3/70، والترمذي في السنن: كتاب صفة القيامة: باب منه 4/576، 577 (2518) من حديث الحسن بن علي قال: حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم: "دع ما يريبك..." الحديث، وعقب عليه بقوله: "وهذا حديث حسن صحيح"، والدارمي في السنن: كتاب البيوع: باب "ما يريبك إلى ما لا يريبك 2/695، 696 رقم (2437) من حديث الحسن بن علي، وأحمد في المسند 3/153 من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعا، والنسائي في السنن: كتاب الأشربة: باب الحث على ترك الشبهات 8/327، 328 رقم (5711) من حديث الحسين بن علي.

مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شرا- أو قال: شيئا" . ([16])

6 - عدم مراعاة آداب الإسلام في التناجي :

ذلك أن الإسلام أدبنا: أنه إن كان ولا بدٍ من التناجي لصلاح الحياة واستقامة الحال، فإن هناك آداباً يلزم مراعاتها وهذه الآداب هي:

أ- حرمة انفراد اثنين فما فوقهما بالنجوى دون الآخر حتى يوجد معه من يناجيه أو يختلط الجميع بالناس، إذ يقول صلى الله عليه وسلم: "إذا كنتم ثلاثة، فلا يتناجى اثنان دون الآخر، حتى تختلطوا بالناس من أجل أن ذلك يحزنه" . ([17])

ويدخل في هذا الأدب: حرمة تناجي اثنين فما فوقهما دون الجماعة بلسان غير لسان الجماعة، لاتحاد العلة، وللمشابهة المتمثلة في الإحزان والإغضاب.

ب - وأن تكون النجوى في الطاعة والمعروف، لا في المعصية والمنكر، إذ يقول سبحانه: {يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وتناجوا بالبر والتقوى واتقوا الله الذي إليه تحشرون إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا}(المجادلة: 9).

ج- وأن تكون النجوى في أمر مهم لا يتم ولا يبرم إلا بعيدا عن أعين المرجفين، والمفسدين في الأرض.

---

[16] - الحديث أخرجه البخاري في الصحيح كتاب اللأدب: باب التكبير والتسبيح عند التعجب 8/60، وأبو داود في السنن كتاب الصوم: باب المعتكف يدخل البيت لحاجة 2/333 رقم (2470)، وابن ماجه في السنن: كتاب الصيام: باب في المعتكف يزوره أهله في المسجد 1/566 رقم (1779)، وأحمد في المسند 6/337، كلهم من حديث صفية بنت - حيي رضي الله عنها به.

[17] - الحديث أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب االاستئذان: باب إذا كانوا أكثر من ثلاثة فلا بأس بالمساواة والمناجاة 8/80، ومسلم في الصحيح: كتاب السلام: باب تحريم مناجاة الاثنين دون الثالث بغير رضاه 4/1717، 1718 رقم (2183، 2184)، وأبو داود في السنن: كتاب الأدب: باب في التناجي 4/263 رقم (4851)، والترمذي في السنن: كتاب الأدب: باب ما جاء لا يتناجى اثنان دون ثالث 5/117 رقم (2825): وعقب عليه بقوله: "هذا حديث صحيح"، والدارمي في السنن: كتاب الاستئذان: باب لا يتناجى اثنان دون صاحبهما 2/282، ومالك في الموطأ: كتاب الكلام: باب ما جاء في مناجاة اثنين دون واحد ص 700 رقم (1812)، وأحمد في المسند 1/375، 425، 431، 432، 440، 460، 462، 464، 465، 9/2، 18، 32، 43، 45، 60، 62، 73، 79، 121، 123، 126، 141، 146، كلهم من حديث عبد الله بن مسعود مرفوعا.

تلكم هي آداب الإسلام في التناجي، ومن يهملها أو لا يلتزم بها يمكن أن يفتح الطريق على نفسه لتتسرب إليها الظنون والأوهام الكاذبة التي لا دليل عليها، ولا برهان.

7 - الوقوع في المعاصي والسيئات ولا سيما مع المجاهرة أو الإعلان :

فقد يقع الإنسان في المعاصي والسيئات وتصل به الحال إلى أن يجاهر أو يعلن بها، وحينئذ يفتح الباب أمام الآخرين ليظنوا به سوءا, نظرا لأنه خان نعمة الله عليه، ولم يقابلها بالعرفان والشكر، وإنما قابلها بالجحود والنكران، فكان أجدر أن يخافه الناس وأن يظنوا به سوءا أو شرا.

ولهذا وغيره دعا الإسلام إلى الإسرار بالمعصية إن كان ولا بد من اقترافها فقال صلى الله عليه وسلم: "كل أمتي معافى إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملا ثم يصبح وقد ستره الله، فيقول: يا فلان، عملت البارحة كذا وكذا وقد بات يستره ربه، ويصبح يكشف ستر الله عنه" . ([18])

8 - نسيان الحاضر النظيف والوقوف مع الماضي الدنس :

فقد يفتتح الإنسان حياته بالوقوع في الرجس والدنس من المعاصي والسيئات، ثم يتوب الله عز وجل عليه فيقلع عن هذه المعاصي، وتلك السيئات، ويواظب على المعروف من البر والطاعات.

ويأتي من ينسى أن قلوب العباد جميعا بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء، ويأخذ في تقييم هذا الصنف - الذي عصى ثم تاب الله عليه فتاب - من خلال ماضيه السيء، وليس من خلال حاضره النظيف، وحينئذ يجد الشيطان

[18] - الحديث أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب االأدب: باب ستر المؤمن على نفسه 8/24، ومسلم في الصحيح: كتاب الزهد: باب النهي عن هتك الإنسان ستر نفسه، 4/2291 رقم (2990) كلاهما من حديث أبي هريرة مرفوعاً.

مدخلاً يدخل منه لتحريك الظنون الكاذبة والأوهام الباطلة التي لا دليل عليها، ولا برهان، ويعمل على تنميتها، حتى تصير خلقاً يتحرك به صاحبه بين الناس.
ولقد علمنا الله في كتابه وعلى لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أنه سبحانه يتجاوز عن العبد ما دام قد تاب وصحت التوبة، إذ يقول سبحانه: {والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرّم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما يُضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مُهانا إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما} (الفرقان: 68- 70).
وإذ يقول صلى الله عليه وسلم لعمرو بن العاص وقد جاء يبايعه وأراد أن يشترط في البيعة مغفرة ما مضى من ذنوبه، يقول له: " أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها وأن الحج يهدم ما كان قبله" . ([19])
وعن ابن عبا س: أن ناساً من أهل الشرك قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، ثم أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: إن الذي تقول وتدعو لحسن، ولو تخبرنا أن لما عملنا كفارة، فنزل: {والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرّم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما} (الفرقان: 68)، ونزل: {يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله} ([20]) (الزمر: 53).

9 - الغفلة أو نسيان الآثار المترتبة على سوء الظن:

وأخيرا فإن الغفلة أو نسيان الآثار المترتبة على سوء الظن قد تكون من بين الأسباب التي تؤدي إلى التردي في هذه الآفة، إذ الإنسان إذا غفل أو نسي عاقبة شيء تردى فيه، وإن كان فيه

---

[19] - قطعة من حديث أخرجه مسلم في الصحيح: كتااب الإيمان: باب كون الإسلام يهدم ما قبله، وكذا الهجرة والحج 1/112، 113 رقم (121) من حديث عمرو بن العاص مرفوعا بهذا اللفظ.
[20] - الحديث أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب الإييمان: باب كون الإسلام يهدم ما قبله، وكذا الهجرة والحج 1/113 رقم (122) من حديث ابن عباس مرفوعا بهذا اللفظ.

حتفه وهلاكه، قال تعالى: {ولكن متّعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا((الفرقان: 18).

رابعا : آثار سوء الظن:

ولسوء الظن آثار ضارة، وعواقب خطيرة يصطلي بنارها الفرد، وتصطلي بنارها الجماعة ودونك طرفا من هذه الآثار وتلك العواقب:

أ - على الفرد:

فمن آثار وعواقب سوء الظن على الفرد :

1 - الوقوع في المعاصي والسيئات:

فقد يؤدي سوء الظن بصاحبه حين يريد أن يتحقق أو يتأكد من صحة ما ظن، أن يقع في سلسلة طويلة من المعاصي والسيئات، تسلم كل واحدة إلى التي تليها، مثل: التجسس أو التحسس، الغيبة، النميمة، التحاسد، التباغض، التدابر، التقاطع، الفرقة، وهلم جراً.

وقد لفت القرآن الكريم والسنة النبوية النظر إلى هذا الأثر وهذه العاقبة حين ذكرا سلاسل المعاصي والسيئات مقترنة بسوء الظن في قوله سبحانه: {يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم} (الحجرات: 12)، وفي قوله صلى الله عليه وسلم: "إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا ولا تحسسوا" . ([21])

[21] - الحديث سبق تخريجه.

2 - القعود عن أعمال البر والطاعات فضلا عن القلق والاضطراب النفسي:

إذ الوقوع في سلاسل المعاصي والسيئات التي ذكرنا تكون سبباً في سواد القلب فيمرض فيقسو أو يموت فيقفل، ويختم عليه فيكون القعود عن الطاعات وأعمال البر، فضلا عن القلق والاضطراب النفسي وصدق الله العظيم: {ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم }(البقرة: 225)، {فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية}(المائدة: 13).

ويتأكد القلق والاضطراب النفسي من جانب آخر، وهو أن سيئ الظن يوجه كل ظنونه إلى ما يحمي به نفسه وعرضه وماله، وعشيرته، فتراه يتوهم أن الناس يتآمرون عليه لقتله أو هتك عرضه أو سلب ماله أو أنهم يحتقرونه، ولا يلقون له بالا ولا يقيمون له وزنا، ومن ثم يحيا قلقا من داخله، لا ينعم بأمن ولا باطمئنان نفسي: {ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا}، (طـه: 124)، {ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعداً} (الجن).

3 - الحسرة والندامة :

فقد ينتهي سوء الظن بصاحبه بعد البحث ومحاولة التحقق أو التأكد إلى عكس ما توهم، وهنا تكون الحسرة والندامة إن كانت لا تزال هناك بقية من خير في الفطرة.

وعلى سبيل المثال لا الحصر: نجد أن الذين ظنوا بأم المؤمنين عائشة وصفوان بن المعطل ظن السوء، من أمثال حسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وغيرهما، أصابتهم الحسرة وعمتهم الندامة لما نزلت البراءة لعائشة من السماء، وتمنوا لو أنهم لم يكونوا ولدوا حتى هذا اليوم، بل لقد ظلت الحسرة والندامة شبحاً مخيفا يلاحقهم في كل مكان حتى لقوا ربهم.

4 - كراهية الناس ونفورهم من أصحاب الظن السيء:

ذلك أن الناس حين يعرفون عن واحد من الناس أنه سيئ الظن، وأن ظنونه هذه تنتهي إلى مجرد اتهام لا دليل عليه ولا برهان، ينفرون منه ويكرهونه أشد الكراهية، سنة الله في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلا، وماذا جنى المرء إذا كرهه الناس، ونفروا منه، والإنسان مدني بطبعه، كما أنه قليل بنفسه كثير بإخوانه.

5 - تضييع العمر فيما لا يفيد :

ذلك أن سيء الظن يظل طول حياته يجري وراء هذه الظنون بغية المتحقق والتأكد من صحتها، وغالبا ما تكون كاذبة، فيكون قد ضيع عمره بددا، وحتى لو كانت صادقة فقد اطلع على ما يؤذي ويؤلم ويبقى خاسرا في الحالين.

6 - التعرض للغضب والسخط الإلهي :

وفوق ما قدمنا فإن سوء الظن وما يترتب عليه من أعمال تؤكده أو تبطله يكون سببا في التعرض للغضب والسخط الإلهي، ومن يطيق غضب الله وسخطه وهو سبحانه يقول: {ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى} (طه:81).

ب - على الجماعة :

ومن آثار وعواقب سوء الظن على الجماعة:

1 - الفرقة وتمزيق الصف :

ذلك أن شيوع سوء الظن يؤدي إلى أن يتراشق الناس بالتهم، ثم يسحبوا الثقة من بعضهم فيتباغضون، ويتدابرون، ويتقاطعون، الأمر الذي يؤدي إلى ذهاب ريحنا ونسلنا في

مواجهة العدو، وذلك هو العذاب العظيم الذي حذرنا الله في أسبابه فقال : {ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودّت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون} (آل عمران: 105-106).

2 - طول الطريق مع كثرة التكاليف :

وكذلك إذا جثم العدو على صدرنا بسبب الفرقة التي هي من آثار سوء الظن، فإن التكاليف تكثر، والطريق تطول، إذ ليس من السهل أن يخلي العدو لنا طريقنا، وإنما يحتاج إلى جهاد ومجاهدة وصبر ومصابرة ومثابرة ومرابطة حتى يزحزح ويزاح من طريق الناس، وليلة تحت قيادة العدو تحتاج منا إلى تكاليف وتضحيات لسنة، لمحو آثار الشر التي غرسها في هذه الليلة وصدق الله: {إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون} (الممتحنة: 2).

وحتى يدرك القارئ خطورة هذه الآثار نضع بين يديه نماذج أخرى غير ما قدمنا:

- كان أحد الموظفين في بعض المؤسسات الخاصصة قد طلب من صاحب المؤسسة قرضاً لفرش وتجهيز سكناه، وحدد مقدار القرض الذي يريد، وإذا بصاحب المؤسسة يوافق على ثلاثة أثمان ما طلب فقط وأصر على ألا يزيد، في الوقت الذي يمنح من هم دونه منزلة وإحسانا القرض الذي يريدون، وعجبنا لصنيع صاحب المؤسسة، وظننا أنه يكره طالب القرض، ويريد التضييق عليه حتى يترك العمل، وبسؤال صاحب العمل أجاب أن هذا الموظف كبير في السن وليست له امرأة، وبحاجة إلى من يعينه على أمره، وهو الآن يقيم في دار ابنه المتزوج، وقد منحنا الابن سكنا به فسحة وسعة من أجل أبيه، وصرحنا بما

صرحنا به من قرض ليتمكن من تجهيز غرفة خاصة به ضمن سكن ولده، ولو أعطيناه القرض الذي أراد لساعده ذلك على تجهيز سكن مستقل عن ولده ونحن لا نريد له ذلك لأنه كبير، ووجوده مع ولده خير له ألف مرة من عيشه لحاله.
فانظر كيف ساء ظننا بصاحب العمل، وبالبحث والتحري تبين أنه لا يريد بما صنع إلا الخير على النحو الذي شرحنا.
- قال عبيد بن عمير: بينما عمر بن الخطاب يمر في الطريق فإذا هو برجل يكلم امرأة فعلاه بالدرة، فقال: يا أمير المؤمنين، إنما هي امرأتي، فقال له: فلم تقف مع زوجتك في الطريق تعرضان المسلمين إلى غيبتكما؟ فقال: يا أمير المؤمنين، الآن قد دخلنا المدينة ونحن تتشاور أين ننزل، فدفع إليه الدرة، وقال: اقتص مني يا عبد الله، فقال: هي لك يا أمير المؤمنين، فقال: خذ واقتص، فقال بعد ثلاث: هي لله، قال: الله لك فيها . ([22])
- ومر رجل على النبي صلى الله عليه وسلم ففقال لرجل عنده جالس: "ما رأيك في هذا؟ " فقال: رجل من أشراف الناس، هذا والله حري إن خطب أن ينكح، وإن شفع أن يشفع، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم مر رجل آخر، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما رأيك في هذا؟" فقال: يا رسول الله، هذا رجل من فقراء المسلمين، هذا حري إن خطب ألا ينكح، وإن شفع ألا يشفع، وإن قال ألا يسمع لقوله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هذا خير من ملء الأرض مثل هذا" . ([23])
- وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لمم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى ابن مريم، وصاحب جريج. وكان جريج رجلا عابدا فاتخذ صومعة فكان فيها، فأتته أمه، وهو يصلي، فقالت: يا جريج، فقال: يا رب، أمي وصلاتي، فأقبل على صلاته، فانصرفت، فلما كان من الغد أتته وهو يصلي، فقالت: يا جريج،

---

[22] - الخبر أورده الشيخ علي الطنطاوي في أخباار عمر، نقلا عن المحب الطبري.
[23] - الحديث أخرجه ابن ماجه في السنن: كتاب االزهد: باب فضل الفقراء 9/1372، 1380 رقم (4120) من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه مرفوعا بهذا اللفظ.

فقال: أي رب، أمي وصلاتي، فأقبل على صلاته، فلما كان من الغد أتته وهو يصلي، فقالت: يا جريج، فقال: أي رب، أمي وصلاتي، فأقبل على صلاته، فقالت: اللهم لا تمته حتى ينظر إلى وجوه المومسات، فتذاكر بنو إسرائيل جريجا، وعبادته، وكانت امرأة بغي يتمثل بحسنها، فقالت: إن شئتم لأفتننه، فتعرضت له فلم يلتفت إليها، فأتت راعياً كان يأوي إلى صومعته، فأمكنته من نفسها فوقع عليها فحملت، فلما ولدت قالت: هو من جريج، فأتوه فاستنزلوه، وهدموا صومعته، وجعلوا يضربونه، فقال: ما شأنكم؟ قالوا: زنيت بهذه البغي فولدت منك، قال: أين الصبي؟ فجاءوا به، فقال: دعوني حتى أصلي، فصلى، فلما انصرف أتت الصبي فطعن في بطنه، وقال: يا غلام، من أبوك؟ قال: فلان الراعي، فأقبلوا على جريج يقبلونه ويتمسحون به، وقالوا: نبني لك صومعتك من ذهب، قال: لا، أعيدوها من طين كما كانت، ففعلوا.

وبينما صبي يرضع من أمه فمر رجل راكب على دابة فارهة، وشارة حسنة فقالت أمه: اللهم اجعل ابني مثل هذا، فترك الثدي، وأقبل إليه، فنظر إليه، فقال؟ اللهم لا تجعلني مثله، ثم أقبل على ثديه، فجعل يرتضع) يقول راوي الحديث: فكأني أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يحكي ارتضاعه بأصبعه السبابة في فيه، فجعل يمصها.

قال: "ومروا بجارية وهم يضربونها ويقولون: زنيت سرقت وهي تقول: حسبي الله ونعم الوكيل، فقالت أمه: اللهم لا تجعل ابني مثلها، فترك الرضاع، ونظر إليها، وقال: اللهم اجعلني مثلها. فهنالك تراجعا الحديث. فقالت: مر رجل حسن الهيئة فقلت: اللهم اجعل ابني مثله، فقلت: اللهم لا تجعلني مثله، ومروا بهذه الأمة، وهم يضربونها ويقولون: زنيت سرقت، فقلت: اللهم لا تجعل ابني مثلها، فقلت: اللهم اجعلني مثلها، قال: إن ذلك الرجل كان جبارا. فقلت: اللهم لا تجعلني مثله، وإن هذه

يقولون لها: زنيت، ولم تزن، وسرقت ولم تسرق فقلت: اللهم اجعلني مثلها " . ([24])
- وقال علي رضي الله عنه: أكثروا على ماريية أم إبراهيم في قبطي ابن عم لها يزورها ويختلف إليها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "خذ السيف فانطلق فإن وجدته عندها فاقتله " قال: قلت: يا رسول الله، أكون في أمرك إذا أرسلتني كالسكة المحماة، لا يثنيني شيء حتى أمضي لما أمرت به، أم الشاهد يرى ما لا يرى الغائب؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بل الشاهد يرى ما لا يرى الغائب لا فأقبلت متوشحا السيف فوجدته عندها، فاخترطت السيف، فلما رآني عرف أني أريده، فأتى نخلة، فرقى فيها ثم رمى بنفسه على قفاه، ثم شال رجليه، فإذا به أجب أمسح، ماله مما للرجال لا قليل، ولا كثير، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته، فقال: "الحمد لله الذي صرف عنا أهل البيت" . ([25])
- ويحكي الدكتور نجيب الكيلاني في كتابه: (المجتمع المريض ص 83- 85) قصة سجين قتل زوجته لظن كاذب، ثم ندم بعد فوات الأوان، فيقول على لسان هذا السجين: " كنت زوجا سعيدا أنعم ببيتي وزوجتي، ولم أكن أرى الحياة إلا باسمة مزدهرة، وأنا بطبيعتي أقنع بالقليل، وأومن بأن الرغيف الذي أحصل عليه هو كنز مقدر علي أن أشكر الله عليه.. كنت سعيدا بحق.. ومرت بي الأيام ناعمة هادئة. ثم جاء اليوم الذي تعكر فيه صفو أحلامي التي كنت أحيا فيها، وذلك حين تناهى إلى سمعي شائعة خيانة زوجتي وأنا يا سيدي من أسيوط، ونحن هناك نرى الشرف أرفع بكثير من أن يمس، ثارت ثائرتي، وخرجت من عملي مسرعا إلى البيت، وهناك رأيت زوجتي

---

[24] - الحديث أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب االأنبياء: باب قول الله تعالى: {واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا} 4/201، 202، ومسلم في الصحيح: كتاب البر والصلة والآداب: باب تقديم بر الوالدين على التطوع بالصلاة، وغيرها 4/ 1976- 1978 رقم (2550)، وأحمد في المسند 7/302، 308، كلهم من حديث أبي هريرة مرفوعا، واللفظ لمسلم .
[25] - الحديث أورده ا لحافظ ابن كثير في ة السسيرة النبوية 4/600.

ومعها رجل كانا جالسين في صورة لا تثير ريبة أو شك في أن خيانة ما قد وقعت ولكني لم أكن أعرف الرجل، بل إني لم أره من قبل، وكنت حين دخولي أعاني ثورة نفسية عاتية وفي اضطراب شديد.
سألت الرجل من يكون؟ فارتبك وتلعثم ولم يحر جوابا، ونظرت إلى امرأتي فرأيت في عينها خوفا مريعا، فجن جنوني وشعرت بدمائي الساخنة تنطلق إلى رأسي، وتركت في نفسي مشاعر عديدة من الشعور بالخيانة والرغبة في الانتقام من هذه المرأة التي أدخلتها قلبي وأطلعتها على سري، فقد كان بيننا عهود.
أحسست بكل هذه المشاعر تموج بين جوانحي في لحظات سراع ثم راحت تتلاشى رويدا رويداً إلا شعورا واحدا كئيبا سيطر على خيالي في إصرار، كان هذا الشعور بأني مغفل، نعم مغفل.
ورأيت ذلك السكين على المائدة، وكانت زوجتي في أقصى حالات الرعب وكنت أنا ثائرا أصرخ، وأهدد وأقترب منها ولففت ذراعي حول ظهرها ثم ذبحتها ذبح الخراف من غير أن تنبس ببنت شفة، ولكني سمعت عشيقها يرجوني بصوت متحشرج ألا أقتلها ثم غمغم بكلمات كثيرة لم أفهم منها شيئا، ولكني أجهزت عليها تماما، واتجهت إليه ولم يكن مصيره إلا مصير زوجتي.
كان هذا الرجل الذي وجدته مع امرأتي يقطن في قرية مجاورة ويدعونه الشيخ محمود، وكان الناس يتبركون به ويلجئون إليه في الملمات، ودعته زوجتي إلى البيت مرات عديدة لأنها كانت لا تخرج مطلقا، دعته ليبرئها من العقم ويدعو لها أسياد السموات والأرض لينقذوها من هذه الأزمة، ولم يكن الذنب ذنبها يا سيدي بل ذنبي أنا، أنا كنت ألومها لأنها لم تنجب لي ابنا يرث قوتي ووجودي.. ثم عرفت أنها بريئة من كل خيانة، وأن الشيخ محمود كان من الأتقياء الصالحين، سيدي أنا معذب فليرحمني الله".

خامسا: علاج سوء الظن:

وما دمنا قد وقفنا على حقيقة سوء الظن، وأسبابه، وآثاره، فإن العلاج معروف، ويمكن تلخيصه في الخطوات التالية:
1 - بناء العقيدة السليمة القائمة على تحسين الظن بالله، وبرسوله وبالمؤمنين الصالحين، فإن هذه العقيدة تحرسنا أن نظن ظن السوء بالآخرين من غير مبرر، ولا مقتضى، وحتى لو كان فإننا نبادر بالتوبة والرجوع إلى الله تبارك وتعالى.
2 - التربية على تغذية هذه العقيدة بما يثبتها في النفس وينميها، وذلك بترك المعاصي والسيئات والمواظبة على فعل الطاعات وأعمال البر، فإن التربية بهذه الصورة تجعلنا نتورع أن نقع في سوء الظن بمن ليس له أهلا، وإن وقعنا فالتوبة والندم.
3 - التنشئة على الالتزام بآداب الإسلام في الحكم على الأشياء والأشخاص من: الاعتماد على الظاهر وترك السرائر إلى الله وحده الذي يعلم السر وأخفى، ومن طلب الدليل والبرهان، ومحض ذلك الدليل وهذا البرهان، بل والتأكد من عدم تعارض وتضارب الأدلة مع بعضها البعض، فإن التنشئة بهذه الصورة تحرس الإنسان من التورط في سوء الظن بغير مبرر ولا موجب.
4 - التنشئة على الالتزام بآداب الإسلام في النجوى من عدم تناجي اثنين فما فوقهما دون الآخر حتى يوجد معه من يناجيه أو يختلط الجميع بالناس، ومن كون هذه النجوى في الطاعة والمعروف دون المعصية والمنكر، ومن كونها في أمر مهم لا يصح أن يقضى فيه إلا بعيدا عن سمع وبصر المرجفين، والمفسدين في الأرض.
5 - تجنب الوقوع في الشبهات ثم الحرص على دفع هذه الشبهات إن وقعت خطأ أو عن غير قصد، وقد مرت بنا قصته صلى الله عليه وسلم مع الأنصاريين، حين كان يودع أم

المؤمنين صفية، وهو معتكف، وأسرعا السير واستوقفهما قائلا: "إنها صفية بنت حيي" . ([26])
وقاس العلماء على ذلك عدة صور فقالوا:
- إذا كنت في خلوة مع محرم لك، أو مع أهلكك، ورآك الغير الذي تخشى عليه الشيطان، وجب أن تقول له: هذه أهلي كيلا تعين عليه الشيطان.
- وإذا كنت قد صليت في بيتك، ثم جئت المسجد، فوجدت الناس يصلون فصل معهم وتكون الصلاة الثانية نافلة لك، لئلا يتخذ الناس قعودك وهم يصلون ذريعة لإساءة الظن بك وأنك لست من المصلين. جاء في الحديث: عن جابر بن يزيد بن الأسود عن أبيه أنه صلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو غلام شاب، فلما صلى إذا رجلان لم يصليا في ناحية المسجد فدعا بهما فجيء بهما ترعد فرائصهما فقال: "ما منعكما أن تصليا معنا"، قالا: قد صلينا في رحالنا، فقال: " لا تفعلوا، إذا صلى أحدكم في رحله ثم أدرك الإمام، ولم يصل فليصل معه فإنها له نافلة . ([27])
وأمثلة البعد عن مواطن التهم في الإسلام كثيرة جدا، غاية ما في الأمر أنه يجب أن يكون هذا المعنى آكد، وأشد في حق العلماء والمربين، لأنهم أسوة وقدوة لغيرهم من الناس، وأي سلوك أو تصرف محسوب عليهم.
يقول ابن دقيق العيد: "وهذا -أي التحرز من كل ما يوقع في التهم - متأكد في حق العلماء ومن يقتدي بهم، فلا يجوز لهم أن يفعلوا فعلا يوجب سوء الظن بهم، وإن كان لهم فيه مخلص،

---

[26] - الحديث أخرجه أبو دود في السنن: كتاب اللصلاة : باب فيمن صلى في منزله ثم أدرك الجماعة فصلى معهم 1/157 رقم (575)، والترمذي في السنن: كتاب الصلاة: باب ما جاء في الرجل يصلي وحده، ثم يدرك الجماعة 1/424 - 426 رقم (219). وعقب عليه بقوله: "حديث يزيد بن الأسود حديث حسن صحيح".
والنسائي في السنن: كتاب الإمامة: باب إعادة الفجر مع الجماعة لمن صلى وحده 2/112، 113 رقم (858)، والدرامي في السنن كتاب الصلاة: باب إعادة الصلوات في الجماعة بعد ما صلى في بيته 1/317، 318، وأحمد في المسند 4/160، 161 كلهم من حديث يزيد بن الأسود مرفوعا. والفرائص - كما في النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير 3/193 - : جمع فريصة، وهي اللحمة التي بين الجنب والكتف تهتز عند الفزع. والرعدة - كما في النهابة أيضا 2/87 - الرجفة، والاضطراب من الخوف .
[27] - انظر: إحكام الأحكام 2/57، وعنه نقل ابن حجر في فتح الباري 4/280.

لأن ذلك سبب إلى إبطال الانتفاع بعلمهم، وقد قالوا: إنه ينبغي للحاكم أن يبين وجه الحكم للمحكوم عليه إذا خفي عليه، وهو من باب نفي التهمة بالنسبة إلى الجور في الحكم" . ([28])

6 - الحرص على سلامة البيئة، ولا سيما في مجتمع الأصدقاء، فإن ذلك له دور كبير في علاج سوء الظن وحماية النفس من أن تتورط فيه من جديد .

7 - مجاهدة النفس وقمع الهوى والشهوات، حتى تعرف النفس أنه ليس من السهل توجيه تهمة لأحد من الناس لمجرد ظن أو تخمين لا دليل عليه ولا برهان، وما في الدنيا شيء أعظم من أن يكون هوانا تبعا لما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول سبحانه : {قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله} (آل عمران: 31).

8 - معاملة التائبين من الناس بحاضرهم لا بماضيهم، وإذا كان الملك الذي أساء هؤلاء وأجرموا في حقه قد تجاوز وعفا فنحن في التجاوز والعفو أولى وأحق، ولا سيما ونحن في المعاصي مثلهم وربما أشد.

9 - دوام النظر في كتب السيرة والتاريخ، ولا سيما تاريخ المسلمين، فإنها مليئة بصور حية عن الظن السيء وآثاره وطريق الخلاص منه، بحيث يسهل على النفس التخلص من هذا الداء.

10 - التذكير الدائم بعواقب سوء الظن في الدنيا والآخرة، وعلى الفرد، والجماعة، فان الإنسان كثيرا ما ينسى، وعلاج هذا النسيان بالتذكير، كما قال سبحانه: {وذكـر فإن الذكرى تنفع المؤمنين} (الذاريات)، {فذكر إن نفعت الذكرى} (الأعلى).

---

[28] - الحديث سبق تخريجه.

الآفة السادسة عشرة
الغيبة

والآفة السادسة عشرة التي يبتلى بها كثير من العاملين فضلاً عن عامة المسلمين، بل لا يكاد يسلم منها أحد إلا من رحم الله عز وجل، إنما هي: (الغيبة).
وحتى يتطهر منها من ابتلى بها، ويتقيها من عافاه الله - عز وجل - وسلمه من الوقوع في غوائلها، فإننا بعون الله وتوفيقه سنعرض لها من الجوانب التالية:

أولا : تعريف ومظاهر أو صور الغيبة :

لغة

الغيبة لغة: مشقة من الغيب الذي هو خلاف الشهادة، أو هو كل ما غاب عن الإنسان، سواء كان محصلاً في القلوب أم غير محصل، ومنه قوله - سبحانه -في صفة نفسه: {عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا } (الجن: 26-27)، {عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم} (التغابن: 18)، وعليه فالغيبة في اللغة، هي ذكر الغير في غيابه سواء أكان ذلك بما يرضى أم بما لا يرضى، وسواء أكان ذلك بالخير أم بالشر . ([29])

[29] - نظر: المعجم الوسيط 2/691-692 بتصرف كثير، والصحاح في اللغة والعلوم لأسامة المرعشلي وأخيه نديم ص 833 بتصرف كثير.

اصطلاحا :
أما ماهية الغيبة في المصطلح الشرعي فتدور حول ذكر المسلم أخاه المسلم في غيابه بما فيه مما يسوءه، ويكرهه، يستوي في ذلك اللفظ والكتابة، التصريح والتلويح . ([30])
جاء في الحديث أنه في صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه يوما: "أتدرون ما الغيبة؟ "قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: "ذكرك أخاك بما يكره" قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: "إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته" . ([31])

ومظاهر أو صور الغيبة كثيرة منها :

1 - العيوب البدنية كقولك عن المسلم: أعمى، أعرج، أعمش، أقرع، قصير، طويل، أسود، أصفر، كبير البطن كالحبر السمين... وهكذا.
2 - العيوب الدينية كقولك عن المسلم: فاسق، فاجر، سارق، خائن، ظالم، متهاون بالصلاة، متساهل في النجاسات، ليس بارا بوالديه، لا يضع الزكاة مواضعها، لا يجتنب الغيبة... وهكذا.
3 - العيوب الدنيوية كقولك عن المسلم: قليل الأدب، يتهاون بالناس، لا يرى لأحد عليه حقا، كثير الكلام، كثير الأكل أو النوم، ينام في غير وقته، يجلس في غير موضعه... وهكذا.
4 - العيوب المتعلقة بأسرته كقولك عن المسلم: أبوه فاسق، أو هندي، أو نبطي، أو زنجي، إسكافي، بزاز، نحا س، نجار، حداد، حائك... وهكذا.

---

[30] - انظر: إحياء علوم الدين للغزالي 3/140، والأذكار للنووي ص 300، وابن حجر في الفتح 10/469.
[31] - الحديث أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب البرر والصلة والآداب: باب تحريم الغيبة 4/2001 رقم (2589)، وأبو داود في السنن: كتاب الأدب: باب في الغيبة 4/269 رقم (4874)، والترمذي في السنن كتاب البر والصلة: باب ما جاء في الغيبة 4/290 رقم (1934)، والدارمي في السنن: كتاب الرقاق: باب ما جاء في الغيبة 2/755 رقم (2614)، وأحمد في المسند 2/230، 384، 386، كلهم من حديث أبي هريرة مرفوعا، وعقب عليه الترمذي بقوله: هذا حديث حسن صحيح".

5 - العيوب الخلقية للمغتاب، كقولك عنه: سيئ الخلق، متكبر، مراء، عجول، جبار، عاجز، ضعيف القلب، متهور، عبوس، خليع... وهكذا.
6 - العيوب باللباس والهيئة كقولك عن المغتاب: واسع الكم، طويل الذيل، وسخ الثياب... وهكذا.
7 - محاكاة المغتاب في مشيه وحركته وحديثه مثل : المشي متعرجاً، أو مطأطئ الرأس، أو مصعرا الخد، ونسبة ذلك إلى المغتاب.. . وهكذا.
8 - غيبة المتفقهين والمتعبدين، كأن يقول أحدهم عن آخر: كيف حال فلان، الله يصلحه، الله يغفر لنا، الله يصلحنا، نسأل الله العافية، نحمد الله الذي لم يبتلنا بالدخول على الظلمة، نعوذ بالله من الشر، الله يعافينا من قلة الحياء، الله يتوب علينا، وما أشبه ذلك من كل ما يفهم منه التنقص، والازدراء... وهكذا.
9 - سوء الظن بغير دليل ولا برهان فإنه غيبة بالقلب، وقد أفردنا الحديث عن هذا المظهر، أو هذه الصورة على أنها آفة قائمة بذاتها وفصلنا القول في ذلك فليراجع في موضعه.
10 - سماع المغتابين، وعدم زجرهم والإنكار عليهم، أو عدم مقاطعة مجلسهم... وهكذا . ([32])

ثانيا: الغيبة في ميزان الإسلام:

والغيبة في ميزان الإسلام حرام بإجماع المسلمين، للدلائل الواضحة الصريحة المنصوص عليها في الكتاب والسنة إذ يقول الله عز وجل: {ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله إن الله توّاب رحيم } (الحجرات: 12).
وإذ يقول صلى الله عليه وسلم وقد مر بقبرين فقال: "إنهما يعذبان وما يعذبان في كبير"، قال: "بلى إنه كبير، أما أحدهما

[32] - انظر: إحياء علوم الدين للغزالي 3/141، 142، والأذكار للنووي ص 301.

فكان يمشي بالنميمة، وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله " ، ([33]) ويقول في خطبة يوم النحر بمنى في حجة الوداع: ".. إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا، ألا هل بلغت" ، ([34]) "لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين

---

[33] - الحديث أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب االوضوء: باب من الكبائر ألا يستر من بوله 1/64، 65، وكتاب الجنائز : باب الجريد على القبر، وباب عذاب القبر من الغيبة والبول 2/119، 120، 124، وكتاب الأدب: باب الغيبة، وباب النميمة من الكبائر 8/20، 21، ومسلم في الصحيح: كتاب الطهارة: باب الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه 1/240، 241 رقم (292)، وأبو داود في السنن: كتاب الطهارة باب الاستبراء من البول 2/6 رقم (20)، والترمذي في السنن: كتاب الطهارة: باب ما جاء في التشديد في البول 1/102، 103 رقم (70)، والنسائي في السنن: كتاب الطهارة: باب التنزه من البول 1/28 رقم (31)، وكتاب الجنائز: باب وضع الجريدة على القبر 3/106 رقم (2068)، وابن ماجه في السنن: كتاب الطهارة: باب التشديد في البول 1/125 رقم (347)، والدارمي في السنن: كتاب الطهارة: باب الاتقاء من البول 1/200 رقم (739)، وأحمد في المسند 1/225 كلهم من حديث ابن عباس رضي الله عنه مرفوعا، وعقب الترمذي على حديثه قائلاً " هذا حديث حسن صحيح" كما أخرجه ابن ماجه في السنن: كتاب الطهارة وسننها: باب التشديد في البول 1/125 رقم (349) من حديث أبي بكرة مرفوعا بنحوه، ومثله أحمد في المسند 5/39، ب ل زاد رواية ثالثة 5/266 من حديث أبي أمامه ولفظه قال: مر النبي صلى الله عليه وسلم في يوم شديد الحر نحو بقيع الغرقد، قال: فكان الناس يمشون خلفه، قال: فلما سمع صوت النعال، وقر ذلك في نفسه فجلس حتى قدمهم أمامه لئلا يقع في نفسه من الكبر، فلما مر ببقيع الغرقد، إذا بقبرين قد دفنوا فيهما رجلين، قال: فوقف النبي صلى الله عليه وسلم فقال: "من دفنتم ها هنا اليوم؟" قالوا: يا نبي الله، فلان وفلان، قال: "إنهما ليعذبان الآن، ويفتنان في قبورهما" قالوا: يا رسول الله، فيم ذاك؟ قال: " أما أحدهما فكان لا يتنزه من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة"، وأخذ جريدة رطبة فشقها، ثم جعلها على القبرين، قالوا: يا نبي الله، ولم فعلت؟ قال: "ليخففن عنهما"، قالوا: يا نبي الله وحتى متى يعذبهما الله؟ قال: "غيب لا يعلمه إلا الله" قال: "ولولا تمريغ قلوبكم، أو تزيدكم في الحديث لسمعتم ما أسمع".

[34] - جزء من حديث طويل أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب العلم: باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: "رب مبلغ أوعى من سامع"، وباب ليبلغ الشاهد الغائب 1/36، 37، 38، وكتاب الحج: باب الخطبة أيام منى 2/216، وكتاب الأضاحي: باب من قال: الأضحى يوم النحر 7/129، 130، وكتاب الفتن: باب قول النبي صلى الله عليه وسلم :لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض، 9/63، وكتاب التوحيد: باب قول الله تعالى: {وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة} 9/163، وكتاب المغازي: باب حجة الوداع 5/224 من عدة أوجه عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه مرفوعا، وكتاب الحج: باب الخطبة أيام منى 2/216، 217، وكتاب المغازي: باب حجة الوداع 5/223 من حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعا وكتاب الحج: باب الخطبة أيام منى 2/215، 216 من حديث ابن عباس رضي الله عنه مرفوعا، ومسلم في الصحيح: كتاب القسامة: باب تغليظ تحريم الدماء، والأعراض والأموال 3/1305-1306 رقم (1679) من حديث عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه مرفوعا، وكتاب الحج: باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم 2/886 - 892 رقم (1218) من حديث جابر ابن عبد الله مرفوعا، وأبو داود في السنن: كتاب المناسك (الحج): باب صفة حجة النبي صلى الله عل يه وسلم 2/182 - 186 رقم (1905) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه مرفوعا، والترمذي في السنن: كتاب الفتن: باب ما جاء في: دماؤكم، وأموالكم عليكم حرام 4/451 رقم (2159)، وكتاب التفسير: باب ومن سورة التوبة 5/255، 256 رقم (3087) من حديث سليمان بن عمرو بن الأحوص، عن أبيه مرفوعا، وعقب عليه قائلا: "هذا حديث حسن صحيح"، والنسائي في السنن الكبرى: كتاب الحج، باب الخطبة يوم النحر، وباب فضل يوم النحر، وباب يوم الحج الأكبر 2/442 - 444 رقم (4592، 4593) من حديث عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه مرفوعا، ورقم (4597) من حديث نبيط بن شريط الأشجعي مرفوعا، ورقم (4100) من حديث سليمان بن عمرو بن الأحوص، عن أبيه مرفوعا، ورقم (4599) من حديث مرة الهمداني، قال: حدثني رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال: قام فينا رسول الله صلى الله

يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم" ، ([35]) "إن من أربى الربا الاستطالة في عرض المسلم بغير حق" ، ([36])
"المسلم أخو المسلم لا يخونه ولا يكذبه ولا يخذله، كل المسلم على المسلم حرام عرضه، وماله، ودمه، التقوى هاهنا، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم" . ([37])
ويقول صلى الله عليه وسلم لعائشة، وقد قالت عن صفية حسبك من صفية كذا وكذا، يقول لها: "لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته" . ([38])
إلى غير ذلك من النصوص الواضحة الدلالة في ذم الغيبة، وتحريمها، وإن كان الحديث الأخير - كما يقول الإمام النووي رحمه الله: (من أعظم الزواجر عن الغيبة أو أعظمها، وما أعلم شيئا من الأحاديث يبلغ في الذم لها هذا المبلغ" . ([39])

عليه وسلم على ناقة حمراء مخضرمة قال... وساق الحديث، وابن ماجه في السنن : كتاب المناسك : باب الخطبة يوم النحر، وباب حجة رسول الله صلى الله عليه وسلم 5/1012 - 1017، 1022- 1027 رقم (3055) من حديث سليمان بن عمرو بن الأحوص عن أبيه مرفوعا، ورقم (3057) من حديث ابن مسعود مرفوعا، وعقب عليه البوصيري في مصباح الزجاج ة 3/207 بقوله: " هذا إسناد صحيح"، ورقم (3058) من حديث ابن عمر مرفوعا، ورقم (3074) من حديث جابر بن عبد الله مرفوعا، والدارمي في السنن: المقدمة: باب الاقتداء بالعلماء 1/79، 80 رقم (231) من حديث محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه مرفوعا، وكتاب المناسك: باب في سنة الحاج 1/473 - 478 رقم (1793) من حديث جابر بن عبد الله مرفوعا، وباب الخطبة يوم النحر 1/497 رقم (1852) من حديث عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه مرفوعا، وأحمد في المسند 1/230 من حديث ابن عباس مرفوعا، 4/305، 356 من حديث نبيط بن شريط عن أبيه مرفوعا، 4/337 من حديث خريم بن عمرو مرفوعا، 5/30 من حديث العداء بن خالد ابن هوذة، 5/37، 39، 40، 41، 49، من عدة طرق عن عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه مرفوعا، 5/68 من حديث أبي غادية مرفوعا، 5/72، 73 من حديث أبي حرة الرقاشي، عن عمه مرفوعا، 5/411 من حديث أبي نضرة، عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم مرفوعا، 5/412 من حديث عمرو بن مرة، عن أبيه، عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم مرفوعا.

[35] - لحديث أخرجه أبو داود في السنن: كتاب اللأدب: باب في الغيبة 4/269، 270 رقم (4878) من حديث بقية، وأبي المغيرة قالا: حدثنا صفوان، قال: حدثي راشد بن سعد، وعبد الرحمن بن جبير، عن أنس بن مالك مرفوعا، وعقب عليه أبو داود بقوله: "حدثناه يحيي بن عثمان عن بقية ليس فيه أنس"، ويعني بذلك أنه حديث مرسل، وأورده ابن حجر في فتح الباري 10/470 وعزاه إلى أبي داود وعقب عليه بقوله: "وله شاهد عن ابن عباس عند أحمد". ومعنى: " يخمشون وجوههم "، أي يمزقونها. يقال: خمش الجلد: مزقه، لسان العرب مادة "خمش".

[36] - لحديث أخرجه أبو داود في السنن: كتاب االأدب: باب في الغيبة 4/269 رقم (4876) من حديث سعيد بن زيد رفعه، وأورده ابن حجر في فتح الباري: 10/470 وعزاه إلى أبي داود، ثم عقب عليه قائلا: "وله شاهد عند البزار، وابن أبي الدنيا من حديث أبي هريرة، وعند أبي يعلي من حديث عائشة".

[37] - جزء من حديث طويل سبق تخريجه ي آفة "سوءء الظن".

[38] - لحديث أخرجه أبو داود في السنن: كتاب اللأدب: باب في الغيبة 4/269 رقم (4875)، والترمذي في السنن: كتاب صفة القيامة: باب منه 4/570 رقم (2502، 2503)، وأحمد في المسند 6/189، كلهم من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعا، وعقب الترمذي على حديثه بقوله: "هذا حديث حسن صحيح".

[39] - انظر: الأذكار للنووي ص 300.

ومع حرمة الغيبة على النحو الذي ذكرنا فإنها تباح في أحوال ولأسباب هي:

1 - التظلم :

فيجوز للمظلوم أن يتظلم إلى السلطان، والقاضي وغيرهما ممن له ولاية أو قدرة على إنصافه من ظالمه، فيذكر أن: فلانا ظلمني وفعل بي كذا، وأخذ منى كذا، ونحو ذلك . وأطلب منك إنصافي ورد مظلمتي، إذ يقول سبحانه : {لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم وكان الله سميعا عليما} (النساء: 148).

2 - الاستعانة على تغيير المنكر ورد العاصي إلى الصواب :

فيقول لمن يرجو قدرته على إزالة المنكر: فلان يعمل كذا فازجره عنه، ونحو ذلك، ويكون مقصوده التوسل إلى إزالة المنكر فإن قصد غير ذلك كان مغتابا، إذ يقول صلى الله عليه وسلم: "من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان" . ([40]) ومن التغيير باللسان الاستعانة بذوي القدرة على إزالة هذا المنكر .

3 - الاستفتاء :

بأن يقول للمفتي: ظلمني أبي، أو أخي أو فلان بكذا فهل له ذلك، أم لا؟ وما طريقي في الخلاص منه، وتحصيل حقي ودفع

---

[40] - الحديث أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب الإيمان: باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان 1/69 رقم (49)، وأبو داود في : السنن : كتاب الصلاة : باب الخطبة يوم العيد 1/296، 297 رقم (1140)، والترمذي في السنن: كتاب الفتن: باب ما جاء في تغيير المنكر باليد أو باللسان أو بالقلب 4/407، 408 رقم (2172)، والنسائي في السنن: كتاب الإيمان ة باب تفاضل أهل الإيمان 8/111، 112 رقم (5008، 5009)، وابن ماجه في السنن: كتاب الصلاة: باب ما جاء في صلاة العيدين 1/406 رقم (1275)، وكتاب الفتن: باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر 2/1330 رقم (4013)، وأحمد في المسند 3/10، كلهم من حديث أبي سعيد الخدري t مرفوعا، وقال الترمذي عقب حديثه: "هذا حديث حسن صحيح".

الظلم عني، ونحو ذلك؟ وكذلك قوله: زوجتي تفعل معي كذا أو زوجي يفعل كذا، ونحو ذلك فهذا جائز للحاجة، والأحوط أن ينسب ذلك إلي غيره بصفته لا باسمه، بأن يقول: ما تقول في رجل كان من أمره كذا، أو في زوج أو زوجة تفعل كذا ونحو ذلك، فإنه يحصل به الغرض من غير تعيين، ومع هذا فالتعيين جائز ولا يضر ما دام بهذا المقصد، أو بهذه النية.
جاء في حديث هند بنت عتبة أم معاوية وامرأة أبي سفيان في رضي الله عنها قولها للنبي صلى الله عليه وسلم وقد أخذ عليها العهد مع من أخذ يوم فتح مكة حين أسلمت ألا تسرق، فقالت: يا رسول الله: إن أبا سفيان رجل شحيح، وإنه لا يعطيني ما يكفيني وبني إلا ما أخذت منه وهو لا يعلم، فهل علي في ذلك جناح؟ فقال: " خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف" . ([41])

4 - تحذير المسلمين من الشر ونصيحتهم :

وذلك من وجوه :
منها: جرح المجروحين من الرواة للحديث، وكذلك الشهود، وذلك جائز بإجماع المسلمين، بل واجب للحاجة، فقد استأذن رجل على النبي صلى الله عليه وسلم فقال: "ائذنوا له، بئس أخو العشيرة" ، ([42]) وقال صلى الله عليه وسلم في رجلين

---

[41] - الحديث أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب االبيوع: باب من أجرى أمر الأنصار على ما يتعارفون بينهم في البيوع 3/103، ومسلم في الصحيح: كتاب الأقضية: باب قضية هند 3/1338، 1339 رقم (1714)، وأبو داود في السنن:كتاب البيوع والإجارات: باب في الرجل يأخذ حقه من تحت يده 3/289، 290 رقم (3532، 3533)، والنسائي في السنن الكبرى: كتاب القضاء: باب قضاء الحاكم على النائب إذا عرفه 3/481، 482 رقم (982)، وابن ماجه في السنن: كتاب التجارات: باب ما للمرأة من مال زوجها 2/769 رقم (2293)، والدارمي في السنن: كتاب النكاح: باب في وجوب نفقة الرجل على أهله 2/598 رقم (2176) كلهم من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعا به، وبنحوه .

[42] - الحديث أخرجه البخاري في الصيام: كتاب االأدب: باب لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم فاحشا، ولا متفحشا، وباب ما يجوز من اغتياب أهل الفساد والريب 8/15، 16، 20، 21، ومسلم في الصحيح: كتاب البر والصلة والآداب: باب مداراة من يتقي فحشه 4/ 2002، 2003 رقم (2591)، وأبو داود في السنن: كتاب الأدب: باب في حسن العشرة - 4/251 رقم (4791، 4792)، ومالك في الموطأ: كتاب الجامع: باب ما جاء في حسن الخلق ص 650 رقم (1630)، وأحمد في المسند 6/38، 79، 80، 158، 159، كلهم من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعا.

من المنافقين: "ما أظن فلانا، وفلانا يعرفان من ديننا شيئاً" . ([43])

ومنها: أنه إذا استشارك إنسان في مصاهرته، أو مشاركته أو إيداعه أو الإيداع عنده، أو معاملته بغير ذلك، وجب عليك أن تذكر له ما تعلمه منه على جهة النصيحة فان حصل الغرض بمجرد قولك: لا تصلح لك معاملته أو مصاهرته، أو لا تفعل هذا، أو نحو ذلك لم تجزئه الزيادة بذكر المساوئ، وإن لم يحصل الغرض إلا بالتصريح بعينه وجب ذكره بصريحه.

جاء في حديث فاطمة بنت قيس أنها جاءت تستشير رسول الله صلى الله عليه وسلم في رجلين خطباها، هما: معاوية، وأبو الجهم فقال صلى الله عليه وسلم : " أما معاوية فصعلوك، وأما أبو جهم فلا يضع العصا عن عاتقه" . ([44])

ومنها: أنه إذا رأيت من يشتري عبدا معروفا بالسرقة، أو الزنا، أو الشرب أو غيرها فعليك أن تبين ذلك للمشتري إن لم يكن عالما به، ولا يختص بذلك بل كل من علم بالسلعة المبيعة عيبا وجب عليه بيانه للمشتري إذا لم يعلمه.

ومنها: إذا رأيت متفقها يتردد إلى مبتدع أو فاسق يأخذ عنه العلم، وخفت أن يتضرر المتفقه بذلك، فعليك نصيحته ببيان حاله، بشرط أن يكون القصد النصيحة، مجردة عن أي حظ من حظوظ النفس.

ومنها: أن يكون له ولاية لا يقوم بها على وجهها، إما بألا يكون صالحا لها، وإما بان يكون فاسقا أو مغفلا ونحو ذلك، فيجب ذكر هذا لمن له عليه ولاية عامة ليزيله ويولي من يصلح، أو يعلم ذلك منه ليعامله بمقتضى حاله، ولا يغتر به، وأن يسعف في حثه

---

[43] - الحديث أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب االأدب: باب ما يجوز من الظن 8/23، 24.

[44] - الحديث أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب الطلاق: باب المطلقة ثلاثا لا نفقة لها 2/1114، 1119، 1120 رقم (1480)، وأبو داود في : السنن : كتاب الطلاق : باب في نفقة المبتوتة 2/285، 286 رقم (2284)، والنسائي في السنن: كتاب الطلاق: باب نفقة الحامل المبتوتة 6/210 رقم (3552) والترمذي في السنن: كتاب النكاح: باب ما جاء ألا يخطب الرجل على خطبة أخيه 3/ 441، 442 رقم (1135) كلهم من حديث أبي سلمة ابن عبد الرحمن، عن فاطمة بنت قيس... الحديث، وعتب الترمذي على روايته بقوله: "هذا حديث صحيح".

على الاستقامة أو خلعه واستبداله بمن يصلح، وجماع ذلك كله قوله صلى الله عليه وسلم: "الدين النصيحة " قلنا: لمن؟ قال: "لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم" . ([45])
ولا جرم أن نشير هنا إلى أنه ليس من هذا الباب: جرح الثقات المجاهدين من العلماء، والدعاة المصلحين الذين باعوا أنفسهم وما يملكون لله عز وجل، وتعرضوا في سبيل ذلك لأصناف شتى من المحن والابتلاءات حتى كان منهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا، من أمثال الشيخ محمد بن عبد الوهاب داعية التوحيد في هذا العصر، ومن أمثال الشيخ حسن البنا مجدد الإسلام في القرن الرابع عشر، ومن أمثال الشيخ سيد قطب الذي تحولت كلماته التي قالها في ظلال القرآن الكريم بعد أن مات في سبيلها إلى أحرف من نور، تضيء للسالكين الطريق، وتحملهم على التضحية، بالنفس والنفيس، الغالي والرخيص وغيرهم، ليس ذلك كله من هذا الباب بدعوى أنهم منافقون، أو مبتدعون، أو ذيول وأذناب للمستعمرين، إذ المنافق والمتبدع أو الذنب لا يقدم رقبته للموت، أو على الأقل لا يظل ماضيا في الطريق وإن لحقه من العنت والأذى ما لحقه، وتجريح هؤلاء فضلا عن أنه غيبة، فهو إما حسد وإما تلبيس وتخييل من الشيطان، وإما ضيق أفق وبله وغباء، وإما عمالة وخسة ونذالة.

5 - أن يكون مجاهرا بفسقه أو بدعته، كالمجاهر بشرب الخمر أو مصادرة الناس وأخذ المكس وجباية الأموال ظلما وتولي الأمور الباطلة، فيجوز ذكره بما يجاهر به، ويحرم ذكره بغيره من العيوب إلا أن يكون لجوازه سبب آخر مما قدمنا آنفا.

---

[45] - الحديث أخرجه البخاري في الصحيح: (معلقاا): كتاب الإيمان: باب قول النبي: "الدين النصيحة"، 1/22، ومسلم في الصحيح: كتاب الإيمان: باب بيان أن الدين النصيحة 1/74 رقم (55)، وأبو داود في السنن: كتاب الأدب: باب في النصيحة 4/ 286 رقم (4944)، والترمذي في السنن: كتاب البر والصلة: باب ما جاء في النصيحة 4/286 رقم (1926)، والنسائي في السنن: كتاب البيعة: باب النصيحة للإمام 7/156 رقم (4197)، كلهم من حديث تميم الداري رضي الله عنه به .

إذ يقول صلى الله عليه وسلم: "كل أمتي معافى إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً ثم يصبح وقد ستره الله، فيقول: يا فلان عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره الله، ويصبح يكشف ستر الله عنه " . ([46])

6 - التعريف :

فإذا كان الإنسان معروفا بلقب مذموم، كالأعمش والأعرج، والأصم، والأعمى، والأحول، والأفطس، وغيرهم، جاز تعريفه بذلك بغية التعريف، ويحرم إطلاقه على جهة النقض، ولو أمكن التعريف بغيره كان أولى، وإذا أمكن التعريف بلقب واحد، من الألقاب المذمومة، فإن الزيادة على هذا اللقب تعد غيبة وهي حرام.

إذ قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم قسمة، فقال رجل من الأنصار: والله ما أراد محمد بهذا وجه الله تعالى، فأتى ابن مسعود رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره فتغير وجهه وقال: "رحم الله موسى، لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر " ، ([47]) يقول ابن مسعود: فقلت: لا أرفع إليه بعد هذا حديثا.

وعن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فأصاب الناس فيه شدة، فقال عبد الله بن أبي بن سلول: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله، وقال: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته

---

[46] - الحديث سبق تخريجه.

[47] - الحديث أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب ففرض الخمس: باب ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه 4/115، وكتاب الأنبياء: باب منه 4/191، وكتاب المغازي: باب غزوة الطائف 5/202، وكتاب الأدب باب من أخبر صاحبه بما يقال فيه 8/21، 22، وباب الصبر على الأذى 8/31، وكتاب الاستئذان: باب إذا كانوا أكثر من ثلاثة، فلا بأس بالمسارة والمناجاة 8/80، ومسلم في الصحيح: كتاب الزكاة: باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام، وتصبر من قوي إيمانه 2/739 رقــم (1062)، والترمذي في السنن:كتاب المناقب: باب فضل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم 5/667 رقم (3896)، وأحمد في المسند 1/380، 396، 411، 435، 436، 441، 453 كلهم من حديث عبد الله بن مسعود في t مرفوعاً به وبنحوه، وعقب عليه الترمذي بقوله: " هذا حديث غريب من هذا الوجه، وقد زيد في الإسناد رجل".

بذلك، فأرسل إلى عبد الله بن أبي وذكر الحديث، فأنكر وكذب زيد بن أرقم، وأنزل الله تصديق زيد بن أرقم في قوله تعالى: {إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك رسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون} (المنافقون:1) . ([48])

ثالثا: أسباب الوقوع في الغيبة

وهناك أسباب كثيرة وبواعث عدة تدفع إلى الوقوع في الغيبة وأهم هذه الأسباب وتلك البواعث:

1 - عدم التثبت أو التبين :

ذلك أن الحكم على الأمور والأشخاص بالسوء دون طلب للدليل وفحص له والتأكد من صحته، والموازنة بينه وبين الظروف المحيطة والواقع المعاش - وهو ما يعرف بعدم التثبت أو التبين - قد يكون من بين الأسباب أو البواعث التي تدفع بالمسلم إلى أن يقع في الغيبة، وصدق الله إذ يقول: {يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين}(الحجرات: 6).

2 - الغضب :

وقد يكون الغضب من بين الأسباب أو البواعث التي تدفع إلى الوقوع في الغيبة، ذلك أن الإنسان إذا غضب من إنسان وهيج

---

[48] - الحديث أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب االتفسير: سورة المنافقون: باب قوله: {إذا جاءك المنافقون} 6/189 - 191، ومسلم في الصحيح: كتاب صفات المنافقين وأحكامهم: باب منه 4/214 رقم (2772)، والترمذي في السنن: كتاب تفسير القرآن: باب ومن سورة المنافقون 5/387 - 389 رقم (3312، 3313، 3314)، وأحمد في المسند 4/368، 369، 373، كلهم من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه مرفوعا به، وبنحوه، وعقب عليه بقوله: " هذا حديث حسن صحيح ".

هذا الغضب، ولم يكن هناك وازع من دين أو خلق فإن لسانه يسبق إلى غيبة هذا الإنسان من باب التشفي وإراحة النفس.
وأحيانا يمتنع الإنسان من التشفي وإراحة النفس عند الغضب لسبب أو لآخر، فيحتقن الغضب في الباطن فيصير حقدا ثابتا كامنا في النفس، الأمر الذي يؤدي إلى ذكر العيوب والمساوئ، وهذه هي الغيبة بعينها.
ولعل هذا من بين الأسرار التي من أجلها دعا الإسلام إلى كظم الغيظ ومقاومة الغضب، إذ يقول صلى الله عليه وسلم: " من كتم عيظا وهو قادر على أن ينفذه، دعاه الله على رؤوس الخلائق حتى يخيره من الحور العين، يزوجه منها ما شاء" . ([49])

3 - البيئة ا لمحيطة قريبة كانت أو بعيدة :

وقد تكون البيئة المحيطة قريبة كانت - ونعني بها البيت - أو بعيدة - ونعني بها مجتمع الأصدقاء - هي السبب في الوقوع في الغيبة، ذلك أن الإنسان شديد التأثر ببيئته، ولا سيما إذا كان في مرحلة الإعداد والبناء .
وعليه فإذا وجد في بيئة لا ترعى للغائب حقه ولا حرمته فإنه يحاكيها، بل ربما وسوس له الشيطان وسولت له نفسه أن الإنكار على هذه البيئة أو قطع هذا المجلس قد يؤدي إلى استثقاله والنفور منه فيجاري، ويرى ذلك من حسن المعاشرة وتمام المجاملة، وأبعد من ذلك غضبه لغضب رفاقه، والخوض في ذكر معايب ومساوئ الغائبين إظهارا للمشاركة والمساهمة في السراء والضراء .

4- الحسد :

[49] - الحديث أخرجه أبو داود في السنن: كتاب االأدب: باب من كظم غظياً 4/248 رقم (4777) من حديث سهل بن معاذ عن أبيه به، مع اختلاف يسير، والترمذي في السنن: كتاب البر: باب في كظم الغيظ 4/326، 327 رقم (2021)، وكتاب صفة القيامة: باب رقم (48) 4/565، 566 رقم (2493)، وابن ماجه في السنن: كتاب الزهد: باب الحلم 2/1400 رقم (4186)، وأحمد في المسند 3/438، 439، 4/14، وأورده الألباني في صحيح الجامع الصغير 5/351 رقم (6394) من حديث معاذ بن أنس رضي الله عنه به .

ذلك أن الإنسان قد يحسد من يثني الناس عليه ويجلونه ويكرمونه، متمنيا زوال نعمته، ولا يجد سبيلا لتحقيق هذه الأمنية إلا بالطعن فيه والنيل منه حتى تسقط منزلته ومكانته عند الناس وهذه هي الغيبة المحظورة أو المحرمة .
ولعل هذا من الأسرار التي من أجلها نهى الإسلام عن الحسد، إذ يقول صلى الله عليه وسلم: " لا تحاسدوا ولا تقاطعوا ولا تباغضوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً " ، ([50]) " الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب" . ([51])

5 - الإعجاب بالنفس حد الغرور والتكبر :

ذلك أن الإنسان قد تعجبه نفسه إلى حد الغرور والتكبر، فيحاول وصفها بالرفعة وعلو المنزلة والمكانة على حساب غيره، فيتناول هذا الغير بالانتقاص والطعن فيقول : فلان جاهل وفهمه ركيك، وكلامه هزيل أو ضعيف لا يحسن أن يبين به عما في نفسه -كما قال هذا الطاغية الجبار فرعون عن موسى عليه السلام وقصده بذلك أن يرفع من قدر نفسه : {أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مُقترنين} (الزخرف:52-53).

---

[50] - لحديث أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب ا لأدب: باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر 8/23، ومسلم في الصحيح: كتاب البر والصلة والآداب: باب تحريم التحاسد والتباغض والتدابر 4/1983 رقم (2559) وأبو داود في السنن: كتاب الأدب: باب فيمن يهجر أخاه المسلم 4/278 رقم (4910)، والترمذي في السنن: كتاب البر والصلة: باب ما جاء في الحسد 4/290 رقم (1935)، وأحمد في المسند 3/110، 165، 199، 209، 225، كلهم من حديث أنس بن مالك في رضي الله عنه به .

[51] - لحديث أخرجه أبو داود في السنن: كتاب اللأدب ة باب في الحسد 4/276 رقم (4903) من حديث إبراهيم بن أبي أسيد، عن جده، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إياكم والحسد، فان الحسد يأكل الحسنات...، الحديث، وجد إبراهيم بن أبي أسيد لم يسم، وقد ذكر البخاري إبراهيم هذا في التاريخ الكبير. وذكر له هذا الحديث، وقال : لا يصح"، وابن ماجه في السنن: كتاب الزهد: باب الحسد 2/1408 رقم (4210) من حديث عيسى بن أبي عيسى الحنّاط، عن أبي الزناد، عن أنس، عن النبي صلى الله عليه وسلم وزاد: "والصدقة تطفئ الخطيئة، كما يطفئ الماء النار، والصلاة نور المؤمن، والصيام جنة من النار، وعقب عليه البوصيري في مصباح الزجاجة 4/238، بقوله: "هذا إسناد فيه عيسى بن أبي عيسى، وهو ضعيف، والجملة ا لا ولى رواها أبو داود من حديث أبي هريرة، ورواه البيهقي من هذا الوجه، وروى قصة الحسد أبو بكر بن أبي شيبة في مسنده، حدثنا أبو معاوية عن الأعمش، عن يزيد الرقاشي، عن أنس به، ورواه أبو يعلي الموصلي، حدثنا أبو سعيد الأشج، وغيره، حدثنا خالد، عن عيسى... فذكره بتمامه".

6 - محاولة تبرئة النفس من التهمة والعيب :

وذلك أن الإنسان قد توجه إليه بعض التهم وتلصق به بعض العيوب ويحاول أن يبرئ نفسه من هذه وتلك، فيخطئ السبيل، وبدل أن يثبت عكس التهمة بسلوكه الحميد، وخلقه الطيب أو عن طريق الشهود الثقات الأثبات، يلجأ إلى الطعن والنيل ممن اتهمه وعابه وهذه هي الغيبة المحرمة.

وصلى الله وسلم وعظم وبارك على الأنبياء والمرسلين وعلى رأسهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، إذ كانت توجه إليهم الطعون وتلصق بهم التهم، فكانوا يصبرون ويحتسبون ويمضون في طريقهم إلى نهايتها، مفوضين الأمر كله لله قائلين: "حسبنا الله ونعم الوكيل" وقد اقتدى بهم أتباعهم في كل عصر ومصر ومن كل جيل وقبيل، وشغلوا أنفسهم بالله وطاعته عن الطعن والنيل من خصومهم وأعدائهم، ويوم القيامة سيكون فوزهم وربحهم وخسارة أعدائهم وخصومهم بسبب ما كانوا يصنعون كما قال سبحانه: {اخسئوا فيها ولا تكلمون إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون} (المؤمنون: 108-111) .

7 - استشعار الطعن من الآخرين :

وقد يستشعر المسلم أن الآخرين سيتوجهون إليه بالطعن والعيب، فيحاول أن يبادرهم قبل أن يبادروه وأن يبادئهم قبل أن يبادئوه، فيقبح من حالهم أو يذكر بعض ما فيهم من خير، ويتخذه سبيلا للطعن فيهم والنيل منهم فيقول: ليس من عاداتي الكذب وقد أخبرتكم بكذا وكذا من أحوالهم فكان كما قلت، ويبني على ذلك ما يريد من الطعن فيهم والنيل منهم ولا سيما في غيابهم، فيقع في آفة الغيبة المحظورة أو المحرمة.

8 - المزاح أو التفكه :

وقد يذكر المرء عيوب الآخرين ولا سيما في غيابهم، من باب المزاح والتفكه ومحاولة تضييع الوقت وإضحاك الآخرين، ناسياً أنه بذلك يأكل لحوم الناس، وناسياً حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: " إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأسا يهوي بها سبعين خريفاً في النار " . ([52])

9 - عد م الدقة في التعبير وتصوير المراد :

ذلك أن المسلم قد يرى من آخر ثباتا في حق أو صبرا على بلاء، في أهل، ومال، وولد، وعشيرة، فيتعجب من صنيعه هذا أو يشفق عليه، ويغضب فيه لله، ويحاول أن يعبر عن ذلك وأن يصوره، فلا يوفق، إذ بدل أن يذكره بصفته، يذكره باسمه، ويعيب عليه أنه كان ينبغي أن يصنع كذا وكذا، وما درى ظروفه أو الملابسات التي أحاطت به، فيكون له بذلك مغتابا.

وقد جاء في الحديث: أن رجلا مر على قوم في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم عليهم، فردوا عليه السلام، فلما جاوزهم قال رجل منهم: إني لأبغض هذا في الله تعالى، فقال أهل المجلس: لبئس ما قلت، والله لننبئنه، ثم قالوا: يا فلان - لرجل منهم - قم فأدركه فأخبره بما قال: فأدركه رسولهم، فأخبره، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحكى له ما قال، وسأله أن يدعوه له، فدعاه وسأله، فقال: قد قلت ذلك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لم تبغضه؟"، فقال: أنا جاره وأنا به خابر، والله ما رأيته يصلي صلاة قط، إلا هذه المكتوبة، قال: فاسأله يا رسول الله: هل رآني أخرتها عن

---

[52] - لحديث أخرجه البخاريي في الصحيح: كتاب االرقاق: باب حفظ اللسان 8/125، ومسلم في الصحيح: كتاب الزهد والرقائق: باب التكلم بالكلمة يهوي بها في النار 4/2290 رقم (2988)، والترمذي في السنن: كتاب الزهد: باب فيمن تكلم بكلمة يضحك بها الناس 4/483 رقم (2314)، والنسـائي في السنن الكبرى: كتاب الرقاق (تحفة الأشـراف بمعرفة الأطـراف) 10/294 رقم (14283).

وقتها، أو أسأت الوضوء لها أو الركوع أو السجود فيها؟ فسأله، فقال: لا. فقال: والله ما رأيته يصوم شهرا قط إلا هذا الشهر الذي يصومه البر والفاجر، قال: فاسأله يا رسول الله: هل رآني قط أفطرت أو نقصت من حقه شيئا؟ فسأله عنه، فقال: لا، فقال: والله ما رأيته يعطي سائلا، ولا مسكينا قط ولا رأيته ينفق شيئاً من ماله في سبيل الله، إلا هذه الزكاة التي يؤديها البر والفاجر، قال: فاسأله: هل رآني نقصت منها أو ماكست فيها طالبها الذي يسألها؟ فقال: لا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للرجل: "قم فلعله خير منك" . ([53])

10 - العمل الحساب أفراد أو جهات مشبوهة :

وقد يكون العمل لحساب أفراد أو جهات مشبوهة معروفة بالحقد على الإسلام وأهله، طمعا في عرض زائل من أعراض هذه الحياة الدنيا، هو السبب في الوقوع في آفة الغيبة، على النحو الذي نشهده الآن من الطعن في أبناء الحركة الإسلامية، ومحاولة إلصاق التهم والعيوب بهم، لا لشيء إلا لأنهم باعوا أنفسهم، وما تملك هذه النفوس لله عز وجل، وممن؟ من أناس ذوي لحى، وعمائم، وسواك، وثياب قصار وقد أرخوا ذوائبهم من وراء ظهورهم، واعتلوا المنابر، وتصدروا للفتوى، إنه لا تبرير لذلك سوى العمالة، سواء أكانوا يقصدون أم لا يقصدون، إذ لا يستفيد من مثل هذا الطعن وذلك النيل والعيب إلا أعداء الله.

11 - عدم قيام الأمة بواجبها نحو المغتابين :

وقد يكون عدم قيام الأمة بواجبها - حكاما أو محكومين - نحو المغتابين، من الأسباب إلى تفتح الطريق أمام هذه الآفة حتى تشيع وتنتشر في الناس.

ذلك أن واجب الأمة نحو المغتابين يقضي:

---

[53] - لحديث أخرجه أحمد في المسند 5/455 من حديث أبي الطفيل عامر بن واثلة أن رجلا مر على قوم فسلم عليهم... الحديث، وأورده الحافظ العراقي في المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار 3/144، 145 وعزاه إلى أحمد قائلا (أحمد بإسناد صحيح".

أ - بعدم السماع أو الاستحسان لما يصدر عن هؤلاء المغتابين.
ب - وزجر أولئك وتخويفهم من عقاب الله في الدنيا والآخرة.
ج - ومقاطعة مجالسهم، والإعراض التام عنهم، وإلا فالإنكار، والبغض القلبي .
د - ثم دعوتهم إلى أن يشتغلوا بعيوبهم عن عيوب الناس "طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس".
وما لم يرع هذا الواجب يكون الوقوع في آفة الغيبة.

12 - سلوكيات أو تصرفات الآخرين الغير محسوبة، ولا سيما إذا كان هؤلاء من ذوي الأسوة والقدوة :

وقد تكون سلوكيات أو تصرفات الآخرين الغير محسوبة من بين الأسباب التي تؤدي إلى الوقوع في الغيبة.
ولعل هذا من بين الأسباب التي من أجلها دعا الإسلام إلى ترك المعاصي وإن كانت صغيرة، واتقاء الشبهات، إذ يقول صلى الله عليه وسلم: "إياكم ومحقرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه"، وضرب صلى الله عليه وسلم لهن مثلاً: "كمثل قوم نزلوا أرض فلاة، فحضر صنيع القوم، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود، والرجل يجيء بالعود، حتى جمعوا سوادا، فأججوا نارا، وأنضجوا ما قذفوا فيها" ، ([54]) "دع ما يريبك إلى ما لا يريبك" ، ([55]) " الحلال بين والحرام بين وبينهما مشبهات، لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى المشبهات استبرأ لدينه، وعرضه، ومن وقع في الشبهات كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا إن حمى الله في أرضه محارمه" . ([56])
وحين يبتلى المسلم بشيء من المعاصي أو الشبهات، فإن عليه أن يستتر فلا يعلن أو يجاهر، إذ يقول صلى الله عليه وسلم:

---

[54] - لحديث أخرجه أحمد في المسند 11/452، 4033 من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه مرفوعا بهذا اللفظ .
[55] - الحديث سبق تخريجه.
[56] - الحديث سبق تخريجه في الجزء الأول، آفة:: " الفتور".

"كل أمتي معافى إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملا ثم يصبح وقد ستره الله، فيقول: يا فلان عملت البارحة كذا، وكذا، وقد بات يستره ربه، ويصبح يكشف ستر الله عنه" . ([57])

13 - عدم تقدير العواقب المترتبة على الغيبة:

وأخيرا قد يكون عدم تقدير العواقب المترتبة على الغيبة هو السبب في الوقوع في آفة الغيبة، إذ الإنسان -كما قدمنا في سائر الآفات التي مضت -إذا نسي عواقب الشيء الضارة، وآثاره المهلكة تجرأ عليه، وواقعه، بل ربما لا يستطيع الانفكاك والتحول عنه.
وإلى هذا أشار رب العزة في قوله سبحانه: {ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما} (طه:115)، {إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحسـاب} (ص:26).

رابعا: آثار الغيبة:

وللغيبة آثار ضارة، وعواقب مهلكة، سواء أكان ذلك على العاملين، أم على العمل الإسلامي، ودونك طرفا من هذه الآثار، وتلك العواقب.

أ - على العاملين:

فمن آثار الغيبة الضارة، وعواقبها المهلكة على العاملين:

1 - قسوة القلب :

[57] - الحديث سبق تخريجه .

ذلك أن المغتاب كثير الكلام بغير ذكر الله، لأنه وقّاع في أعراض الناس، أكال للحومهم، ومن كثر كلامه بغير ذكر الله قسا قلبه، فلم يوفق لخير أبدا، وإن وفق فإنما هو توفيق الجوارح، لا توفيق القلوب، ولهؤلاء من ربهم الويل كل الويل كما قال سبحانه: {فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين} (الزمر: 22).

2 - التعرض لسخط الله وغضبه :

وذلك أن المغتاب قد تطاول بهذه الغيبة على حدود الله، وأتى منكرا من القول وزورا، والتطاول على حدود الله، وإتيان المنكر من القول والزور مما يعرض لغضب الله، وسخطه كما جاء في حديث أبي هريرة، عنه رضي الله عنه أنه قال: "وان العبد يتكلم بالكلمة من سخط الله، لا يلقي لها بالا يهوي بها في جهنم" . ([58])

3 - العذاب الشديد ولا سيما في القبر:

وذلك أن المغتاب يضيع حسناته إن كانت له حسنات بل تتكاثر عليه السيئات، الأمر الذي يعرضه للعذاب الشديد ولا سيما في القبر، وأقل شيء في هذا العذاب تشويه الوجه، فقد مر صلى الله عليه وسلم بقبرين، فقال: " إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستبرئ من بوله، وأما الآخر فكان يمشي بين الناس بالغيبة والنميمة" . ([59])

وقال لأصحابه: "أتدرون ما المفلس؟" قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: "إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطي هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته، قبل أن يقضي ما

---

[58] - الحديث سبق تخريجه .

[59] - الحديث سبق تخريجه .

عليه، أخذ من خطاياهم، فطرحت عليه، ثم طرح في النار" . ([60])

وقال صلى الله عليه وسلم: "لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم" . ([61])

4 - عدم القدرة على القيام بالواجبات :

وذلك أن المغتاب يبدّد طاقاته في أكل لحوم الناس، وإذا بددت طاقات الإنسان عجز عن القيام بالمهام المنوطة، والواجبات المفروضة.

ولعل هذا من بين الأسرار التي من أجلها دعا الإسلام إلى الصبر وكظم الغيظ، فقال سبحـانه: {ولئن صبرتم لهو خير للصابرين} (النحل:126)، {يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين} (البقرة: 153)، {يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا} (آل عمـران: 250)، {والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس} (آل عمران: 134).

5 - الجبن :

وذلك أن الغيبة في حدّ ذاتها مظهر من مظاهر الجبن، وإلا لواجه المغتاب أخاه بعيبه، ونصحه بالحكمة والموعظة الحسنة، وبمرور الوقت تثمر الغيبة آفة الجبن، والضعف، وعدم القدرة على المواجهة، الأمر الذي يؤدي إلى انتفاش الباطل وانتفاخه وتحول الأرض إلى جورة من الشر والفساد، كما قال سبحانه: {ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا} (الحج: 40)،

---

[60] - الحديث أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب البرر والصلة والآداب: باب تحريم الظلم 4/1997 رقم (258)، والترمذي في السنن: كتاب صفة القيامة: باب ما جاء في شأن الحساب والقصاص 4/529، 530 رقم(2418)، وأحمد في المسند 2/353، 334، 371، 372، كلهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً، واللفظ لمسلم وعقب عليه الترمذي بقوله: "هذا حديث حسن صحيح".

[61] - الحديث سبق تخريجه.

{ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض} (البقرة: 251).

ب - على العمل الإسلامي،

وأما آثار الغيبة الضارة وعواقبها المهلكة على العاملين فإنها تتلخص في:

1 - الفرقة والتمزق :

الأمر الذي يؤدي إلى شيوع الشر والفساد وطول الطريق، وكثرة التكاليف وتمكن العدو من رقابنا، ذلك أن الغيبة تؤدي إلى قول الزور، وقول الزور يؤدي إلى البهتان، والبهتان يؤدي إلى الخصومة، ثم التدابر والقطيعة، أو الفرقة.

ولعل هذا هو ما عناه سهل بن عبد الله حين قال: من أراد أن يسلم من الغيبة، فليسد على نفسه باب الظنون، فمن سلم من الظن سلم من التجسس، ومن سلم من التجسس سلم من الغيبة، ومن سلم من الغيبة سلم من الزور، ومن سلم من الزور سلم من البهتان" . ([62])

2 - فتح الطريق أمام الناشئة والبسطاء من الناس للوقوع في هذه الآفة :

ذلك أن الناشئة والبسطاء من الناس فيهم حب الاقتداء والتأسي، أو على الأقل المحاكاة أو التشبه، فإذا كان الجو الذي يحيط بهم ملوثا بالغيبة، وليس لديهم حصانة أو رصيد يقوم على مراقبة الله والخوف منه، فإنهم لا محالة سيشاركون، إما اقتداءً وتأسياً، وإما محاكاة ومشابهة، وكأننا بذلك نفتح المجال أمامهم لتدنس نفوسهم، وتفسد قلوبهم، وحينئذ يكون البوار والخسران المبين.

---

[62] - لأثر أورده الحافظ البيهقي في شعب الإيممان: باب في تحريم أعراض الناس 5/316 رقم (6783) عن سهل بن عبد الله .

خامسا: علاج الغيبة:

وما دمنا قد وقفنا على أسباب الوقوع في الغيبة، وأدركنا آثارها الضارة، وعواقبها المهلكة، فقد صار من السهل علينا رسم طريق العلاج، بل الوقاية من هذه الآفة، وتتلخص في:

1 - تربية ملكة تقوى الله، ومراقبته في النفس، وإن هذه الملكة إن نبتت، ورسخت في النفس تحمي صاحبها من أكل لحوم الناس، بل قد تدفعه أن يصون أعراض الآخرين من أن تنتهك في مجلسه وهو ساكت لا يفعل شيئاً، ولعل هذا الدواء هو الوارد في ذيل آية تحريم الغيبة في سورة الحجرات، إذ ختمت الآية بقوله سبحانه: {واتقوا الله إن الله توّاب رحيم} (الحجرات: 12).

2 - أن يضع المسلم في حسابه أن كل ما يتفوه به مكتوب ومحسوب عليه، إذ يقول سبحانه: {ما يلفظ من قول إلاّ لديه رقيب عتيد} (ق: 18).

ولأن تحسب له كلماته التي يتفوه بها، خير من أن تحسب عليه.

3 - التثبت أو التبين في الحكم على الأشياء والأشخاص بل وفي نقل هذا الحكم، وإشاعته بين الناس حفاظا على أعراض الناس، وإبقاءً على رابطة الأخوة، إذ يقول سبحانه: {يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين} (الحجرات:6).

4 - كظم الغيظ، ومقاومة الغضب على اعتبار أن الغضب من أسباب الوقوع في الغيبة كما قدمنا، يقول سبحانه :

{والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين} (آل عمران:134)، {ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور} (الشورى:43). ويقول صلى الله عليه وسلم: "من كتم غيظا، وهو قادر على أن ينفذه، دعاه الله على رؤوس الخلائق، حتى يخيره من الحور العين، يزوجه منها ما شاء" . ([63])

---

[63] - الحديث سبق تخريجه.

5 - العمل على سلامة البيئة قريبة كانت أو بعيدة من مثل هذه الآفة، حتى لا يكون هناك مجال للاقتداء أو للمحاكاة بما هو ضار وموبق في الحياتين جميعا: الدنيا والآخرة.
6 - التبصير بالسبيل الصحيحة لتبرئة النفس من التهم أو الطعون الموجهة إليها، بأن يواجه المسلم التهم أو الطعون الموجهة إليه بالسلوك الحميد، والخلق الطيب، أو بواسطة الشهود الثقات الأثبات، دون لجوء إلى غيبة من اتهمه وطعن فيه.
7 - دعوة ذوي الأسوة والقدوة أن تكون تصرفاتهم دقيقة ومحسوبة، وإلا اقتدى بهم الآخرون، وكانت شرور ومفاسد لا يعلم عقباها إلا الله عز وجل.
وإليك ما نبه إليه الإمام النووي - رحمه الله - في هذا الأمر، إذ يقول: اعلم أنه يستحب للعالم، والمعلم، والقاضي، والمفتي، والشيخ المربي، وغيرهم ممن يقتدي به، ويؤخذ عنه: أن يجتنب الأفعال، والأقوال، والتصرفات التي ظاهرها خلاف الصواب وان كان محقا فيها ؛ لأنه إذا فعل ذلك ترتب عليه مفاسد من جملتها: توهم كثير ممن يعلم ذلك منه أن هذا جائز على ظاهره بكل حال، وأن يبقى ذلك شرعاً، وأمرا معمولا به أبدا، ومنها: وقوع الناس فيه بالتنقص، واعتقادهم نقصه وإطلاق ألسنتهم بذلك، ومنها: أن الناس يسيئون الظن به، فينفرون عنه، وينفرون غيرهم عن أخذ العلم عنه، وتسقط رواياته، وشهادته، ويبطل العمل بفتواه ويذهب ركون النفوس إلى ما يقوله من العلوم، وهذه مفاسد ظاهرة، فينبغي له اجتناب أفرادها، فكيف بمجموعها ؟ فإن احتاج إلى شيء من ذلك، وكان محقا في نفس الأمر لم يظهره، فإن أظهره أو ظهر أو رأى المصلحة في إظهاره ليعلم جوازه، وحكم الشرع فيه، فينبغي أن يقول: هذا الذي فعلته ليس بحرام، أو إنما فعلته لتعلموا أنه ليس بحرام إذا كان على هذا الوجه الذي فعلته، وهو كذا، وكذا، ودليله: كذا، وكذا .

روينا في صحيحي البخاري، ومسلم عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قام على المنبر، فكبّر، وكبّر الناس وراءه، فقرأ، وركع، وركع الناس خلفه، ثم رفع، ثم رجع القهقري، فسجد على الأرض. ثم عاد إلى المنبر حتى فرغ من صلاته، ثم أقبل على الناس فقال: "أيها الناس، إنما صنعت هذا لتأتموا بي ولتعلموا صلاتي". والأحاديث في هذا الباب كثيرة . ([64])

8 - وجوب السؤال عن التصرفات التي ظاهرها مجانبة الصواب قبل الوقوع في أصحابها بالغيبة، فلعل لهؤلاء مبررا، أو وجهة نظر فيما وقع منهم مجانبا للصواب، ولا سيما وكل واحد في الناس يؤخذ منه، ويرد عليه إلا النبي صلى الله عليه وسلم وفي ذلك يقول الإمام النووي - رحمه الله: (اعلم أنه يستحب للتابع إذا رأى من شيخه وغيره ممن يقتدى به في ظاهره للمعروف، أن يسأله عنه، بنية الاسترشاد، فإن كان قد فعله ناسيا تداركه، وإن كان فعله عامدا، وهو صحيح في نفس الأمر تنبه له، فقد روينا في صحيحي البخاري، ومسلم عن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: دفع رسول الله صلى الله عليه وسلم من عرفة حتى إذا كان بالشعب نزل فبال، ثم توضأ فقلت: الصلاة يا رسول الله. فقال: "الصلاة أمامك".

يقول الإمام النووي معقبا على ذلك: "إنما قال أسامة ذلك؛ لأنه ظن أن النبي صلى الله عليه وسلم نسي صلاة المغرب، وكان قد دخل وقتها قبل خروجه" . ([65])

وفي صحيح مسلم: أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى الصلوات يوم الفتح بوضوء واحد، فقال عمر: لقد صنعت اليوم شيئاً لم تكن تصنعه، فقال: "عمدا صنعته يا عمر" . ([66])

---

[64] - لحديث أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب اللجمعة: باب الخطبة على المنبر 2/11، ومسلم في الصحيح: كتاب المساجد ومواضع الصلاة: باب جواز الخطرة والخطوتين في الصلاة 1/386، 387، رقم (544).

[65] - لحديث أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب اللحج: باب النزول بين عرفة وجمع 2/200، ومسلم في الصحيح: كتاب الحج: باب استحباب إدامة الحاج التلبية 2/931 رقم (1280). وانظر الأذكار للنووي ص 284.

[66] - الحديث أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب الطهارة: باب جواز الصلوات كلها بوضوء واحد 1/232 رقم (277).

9 - قيام الأمة بواجبها نحو المغتابين بألا تسمع لهؤلاء، بل عليها أن تزجرهم بكل ما تملك من أساليب ووسائل، ومن أبرز هذه الأساليب وتلك الوسائل رد غيبة هؤلاء، فقد جاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من رد عن عرض أخيه ردّ الله عن وجهه النار يوم القيامة" ، ([67]) "ما من امرئ خذل امرأ مسلما في موضع تنتهك فيه حرمته، وينتقص فيه من عرضه إلا خذله الله في موطن يحب فيه نصرته، وما من امرئ ينصر مسلما في موضع ينتقص فيه من عرضه، وينتهك فيه من حرمته إلا نصره الله في موطن يحب نصرته" ، ([68]) "من حمى مؤمنا من منافق، بعث الله تعالى ملكا يحمي لحمه يوم القيامة من نار جهنم، ومن رمى مسلما بشيء يريد شينه حبسه الله على جسر جهنم، حتى يخرج مما قال" . ([69])

وعلى ولي الأمر بالذات لفت نظر المغتابين إلى خطورة الغيبة وضررها على الفرد، والجماعة، فإن لم ينزجروا أنذرهم، ثم عزرهم، وبذلك يقضي على الشر من أساسه، ويقتل السوء في مهده.

10 - التذكير الدائم بعواقب الغيبة في الدنيا والآخرة، سواء أكان ذلك على العاملين، أم على العمل الإسلامي، فإن الإنسان ينسى، وعلاج النسيان إنما يكون بالتذكير: {وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين} (الذاريات: 55).

---

[67] - الحديث أخرجه الترمذي في السنن: كتاب اللبر والصلة، باب ما جاء في الذب عن عرض المسلم 4/288 رقم (1931)، وأحمد في المسند 6/449، 450 كلاهما من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه مرفوعا، وعقب عليه الترمذي بقوله: "هذا حديث حسن" وزاد أحمد 6/461 رواية أخرى من حديث أسماء بنت يزيد إلا أن في إسناد هذه الرواية: (شهر بن حوشب) وهو وإن كان صدوقا، إلا أنه كثير الإرسال، والأوهام. انظر: تقريب التهذيب للحافظ ابن حجر 1/355 ترجمة رقم (112) حرف الشين.

[68] - الحديث أخرجه أبو داود في السنن: كتاب الأدب: باب من رد عن مسلم غيبة 4/271 رقم (4883)، وأحمد في المسند 4/30 كلاهما من حديث جابر بن عبد الله، وأبي طلحة بن سهل الأنصاريين مرفوعاً به، بنحوه.

[69] - الحديث أخرجه أبو داود في السنن: كتاب االأدب: باب من رد عن مسلم غيبة 4/271 رقم (4883)، من حديث سهل بن معاذ بن أنس الجهني، عن أبيه مرفوعا، وسهل بن معاذ هذا قال عنه المنذري: ضعيف، وقال ابن حجر في : تقريب التهذيب 1/337 رقم (568):لا بأس به إلا في روايات ربّان عنه". كما أخرجه أحمد في : المسند 3/441 من حديث سهل بن معاذ عن أبيه مرفوعا.

الآفة السابعة عشرة
النميمة

والآفة السابعة عشرة التي ابتلي بها نفر من العاملين، وكادت تأتي على الأخضر واليابس إنما هي: "النميمة".
وحتى يتطهر من هذه الآفة من ابتلي بها، ويتوقاها من سلّمه الله - عز وجل- منها، فإننا سنتناولها من الجوانب التالية:

أولا : تعريف النميمة :

لغة

تطلق النميمة في اللغة على معان عدّة، نذكر منها:
أ - قتُّ الكلام أو الحديث مطلقاً أي نقله، تقول: نم الحديث نماً أي قتَّه، ورجل نَمٌّ، ونمَّام أي قتَّات، ثم صارت تطلق على نقل الكلام على جهة الإفساد، وفي الحديث: "لا يدخل الجنة قتّات" . ([70])
ب - الهمس و الحركة، ومنه قولهم : أسكت الله نامّته، أي ما ينمُّ عليه من حركته.
ج- الترقيش و الزغرفة، تقول: نمنم الشيء نمنمةً، أي رقّشه، وزخرفه، وثوب منمنم أي موشّى، ومنه قيل للبياض الذي يكون على أظفار الأحداث: نمنمة . ([71])
ولا تعارض بين هذه المعاني جميعاً، إذ قتُّ الكلام أو الحديث قد يكون مصحوبا بالهمس، والحركة، وقد يكون مزخرفا، ومنمقا حتى يحظى بالقبول .

---

[70] - الحديث أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب االأدب: باب ما يكره من النميمة 8/21، ومسلم في الصحيح: كتاب الإيمان: باب غلظ تحريم النميمة 1/101 رقم (105)، وأبو داود في السنن: كتاب الأدب: باب في القتات 4/268 رقم (4871)، والترمذي في السنن: كتاب البر والصلة: باب ما جاء في النمام 4/329 رقم (2026) كلهم من حديث حذيفة بن اليمان t مرفوعاً بهذا اللفظ، وبلفظ : لا يدخل الجنة نمام" عند مسلم.
[71] - انظر: الصحاح في اللغة والعلوم لنديم وأأسامة المرعشليين ص 1028، وبصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادي 5/126، 127 بتصرف.

اصطلاحا :
أما معنى النميمة في الاصطلاح الشرعي فلها معنيان:
أحدهما خاص، وهو: نقل كلام الناس بعضهم إلى بعض على جهة الإفساد بينهم.
والآخر عام، وهو: كشف ما يكره المرء كشفه سواء كرهه المنقول عنه، أو المنقول إليه، أو كرهه ثالث، وسواء أكان الكشف بالقول، أم بالكتابة، أم بالرمز، أم بالإيماء يعني الإشارة وسواء أكان المنقول من الأفعال، أم من الأقوال، وسواء أكان ذلك عيباً أو نقصاً في المنقول عنه، أم لم يكن . ([72])
وليس من النميمة بمعنييها الخاص، والعام، نقل الكلام أو الحديث على جهة الإصلاح كالتقريب بين متخاصمين مثلاً، وكما إذا رأى من يعتدي على مال غيره بسرقة، أو اختلاس، وشهد به مراعاة لحق المشهود عليه ويعرف هذا في اللغة باسم الإنماء ، ([73]) وقد جاء في الحديث قوله صلى الله عليه وسلم: "ليس الكذاب من أصلح بين الناس، فقال خيرا، أو نمى خيرا " . ([74])
والفرق بين النميمة، والغيبة على هذا التعريف هو العموم والخصوص المطلق، أي أن كل نميمة غيبة، وليس كل غيبة نميمة، فإن الإنسان قد يذكر عن غيره ما يكرهه، ولا إفساد فيه بينه وبين أحد، وهذا غيبة، وقد يذكر عن غيره ما يكرهه وفيه إفساد، وهذا غيبة، ونميمة معاً . ([75])

---

[72] - إحياء علوم الدين للغزالي 3/152، والأذكار للنووي ص 309، وتطهير الغيبة من دنس الغيبة لابن حجر الهيثمي ص 79.
[73] - إحياء علوم الدين للغزالي 3/152، والأذكار للنووي ص 309، وتطهير الغيبة من دنس الغيبة لابن حجر الهيثمي ص 79.
[74] - الحديث أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب االصلح: باب ليس الكاذب الذي يصلح بين الناس 3/240، ومسلم في الصحيح: كتاب البر والصلة والآداب: باب تحريم الكذب وبيان المباح منه 4/2011 رثم (2605)، وأبو داود في السنن كتاب الأدب: باب في إصلاح ذات البين 4/280، 281 رقم (4920، 4921)، والترمذي في السنن: كتاب البر والصلة: باب ما جاء في إصلاح ذات البين 4/292 رقم (1938)، وقال عقيبة: "هذا حديث حسن صحيح"، وأحمد في المسند 6/404 كلهم من حديث أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط مرفوعاً بهذا ا اللفظ وبنحوه .
[75] - انظر: تطهير الغيبة من دنس الغيبة لابن حجر الهيثمي ص 80.

ثانيا : موقف ا لإسلام من النميمة :

والإسلام يحرم النميمة، ويراها من الكبائر التي تحرم الواقع فيها المقيم عليها من الجنة، وتوجب له النار، نظرا لأنه سعى في قطع ما أمر الله به أن يوصل، ويفسد في الأرض.
يقول تبارك وتعالى: {إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق}(الشورى: 42). والنّمام م واحد من هؤلاء: {ولا تطع كل حلاّف مهين هماز مشاء بنميم} (القلم: 10-11).
ويقول صلى الله عليه وسلم: "إن من شرار الناس من اتقاه الناس لشره" ، ([76]) "لا يدخل الجنة قاطع" قيل: وما القاطع؟ قال: "قاطع بين الناس" . ([77]) وهو النمام، وقيل: قاطع رحم، "لا يدخل الجنة قتات" ، ([78]) ومر صلى الله عليه وسلم بقبرين فقال: " إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستبرئ من بوله، وأما الآخر فكان يمشي بين الناس بالغيبة والنميمة " ، ([79]) "من كان له وجهان في الدنيا، كان له

---

[76] - الحديث أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب االأدب: باب لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم فاحشا ولا متفحشا، وباب ما يجوز من اغتياب أهل الفساد والريب 8/15، 16، 20، 21؛ ومسلم في الصحيح: كتاب البر والصلة والآداب: باب مداراة من يتقى فحشه 4/2502، 2003 رقم (2591)، وأبو داود في السنن: كتاب الأدب: باب في حسن العشرة 4/251 رقم (4791، 4792)، ومالك في الموطأ: كتاب الجامع: باب ما جاء في حسن الخلق ص 650 رقم (1630)، وأحمد في المسند 8/36، 79، 80، 158، 159 كلهم مز حديث عائشة في رضي الله عنها مرفوعاً، ولفظه: أن رجلا استأذن على النبي صلى الله عليه وسلم فقال: " ائذنوا له، فلبئس ابن العشيرة، أو بئس رجل العشيرة"، فلما دخل عليه ألان له القول، قالت عائشة: فقلت: يا رسول الله، قلت له الذي قلت: ثم ألنت له القول، قال: "يا عائشة، إن شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة من ودعه، أو تركه الناس اتقاء فحشه".
[77] - الحديث أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب االأدب: باب إثم القاطع 8/6، ومسلم في الصحيح: كتاب البر والصلة والآداب: باب صلة الرحم، وتحريم قطيعتها 4/1981 رقم (2556)، وأبو داود في السنن: كتاب الزكاة: باب في صلة الرحم 33/12 رقم (1696) والترمذي في السنن: كتاب البر والصلة: باب ما جاء في صلة الرحم 4/279 رقم (1909) كلهم من "حديث جبير بن مطعم مرفوعا، وعقب الترمذي عليه بقوله: "هذا حديث حسن صحيح".
[78] - الحديث سبق تخريجه.
[79] - الحديث سبق تخريجه.

لسانان من نار يوم القيامة " ، ([80]) "تجدون من شر عباد الله يوم القيامة ذا الوجهين " . ([81]) إلى غير ذلك من النصوص.

ثالثا: أسباب النميمة :

والأسباب التي توقع في النميمة كثيرة، ونذكر منها:

1 - البيئة ا المحيطة القريبة كانت أو بعيدة:

فقد ينشأ الإنسان في بيئة دأبها الإفساد والوقيعة بين الناس، فيأخذ في الأثر بها، ومحاكاتها، ولا سيما إذا لم يكن قد توفرت لديه الوقاية والحصانة اللازمة لحمايته من مثل هذه الآفات، ولا فرق بين أن تكون هذه البيئة قريبة - أي البيت - أو بعيدة - أي المجتمع - إذ الكل له دور كبير في حياة المرء على وجه العموم، والناشئة على وجه الخصوص.

2 - الحسد أو محبة الشر والسوء للناس :

وقد يكون الحسد أو محبة الشر والسوء للناس مدعاة للوقيعة والإفساد، على نحو ما جاء عن حماد بن سلمة إذ قال: "باع رجل عبدا، وقال للمشتري: ما فيه عيب إلا النميمة، قال: قد رضيت، فاشتراه، فمكث الغلام أياماً، ثم قال لزوجة مولاه: إن سيدي لا يحبك، وهو يريد أن يتسرى عليك، فخذي الموسى،

---

[80] - الحديث أخرجه البخاري في الأدب المفرد: باب إثم ذي الوجهين ص 573 رقم (1310)، وأبو داود في السنن: كتاب الأدب: بـاب في ذي الوجهين 4/268 رقم (4873)، والدارمي في السنن: كـتاب الرقاق: باب مـا قيـل في ذي الوجهين 2/770 رقم (2662) كلهم من حديث عمار بن ياسر t مرفوعا، وأورده الألباني في صحيح الجامع الصحيح برقم (6372).

[81] - الحديث أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب االمناقب: باب قول الله تعالى: {يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى} 4/217، وكتاب الأحكام: باب ما قيل في ذي الوجهين 8/21، وكتاب الأحكام: باب ما يكره من ثناء السلطان 9/89، ومسلم في الصحيح: كتاب البر والصلة والآداب: باب ذم ذي الوجهين، وتحريم فعله 4/2011 (2526)، وأبو داود في السنن: كتاب الأدب: باب في ذي الوجهين 4/ 268 رقم (4872)، والترمذي في السنن: كتاب البر والصلة: باب ما جاء في ذي الوجهين 4/328 رقـم (2025)، وقال: "هذا حديث حسن صحيح "، ومالك في الموطأ: باب ما جاء في إضاعة المال وذي الوجهين ص 701 رقـــم (1818)، وأحمد في المسند 2/245، 307، 336، 455، 465، 495، 517، 525 كلهم من حديث أبي هريرة في t مرفوعاً بهذا اللفظ، وبنحوه .

واحلقي من شعر قفاه عند نومه شعرات حتى أسحره عليها، فيحبك، ثم قال للزوج: إن امرأتك اتخذت خليلاً، وتريد أن تقتلك، فتناوم لها حتى تعرف ذلك، فتناوم لها، فجاءت المرأة بالموسى، فظن أنها تريد قتله، فقام إليها فقتلها، فجاء أهل المرأة فقتلوا الزوج، ووقع القتال بين القبيلتين" . ([82])

وعلى نحو ما ذكر صاحب بدائع السلك في طبائع الملك إذ قال: "كان رجل يغشي بعض الملوك، فيقوم بحذاء الملك، ويقول: أحسن إلى المحسن بإحسانه، والمسيء ستكفيه مساوئه، فحسده رجل على ذلك المقام والكلام، فسعى به إلى الملك، فقال: إن هذا الذي يقوم بحذائك، ويقول ما يقول يزعم أن الملك أبخر، فقال له الملك: وكيف يصح ذلك عندي؟ قال: تدعو به إليك، فإذا دنا منك وضع يده على أنفه لئلا يشم ريح البخر، فقال له الملك: انصرف حتى أنظر، فخرج من عند الملك، فدعا الرجل إلى منزله، فأطعمه طعاما فيه ثوم، فخرج الرجل من عنده، وقام بحذاء الملك، فقال: أحسن إلى المحسن بإحسانه، والمسيء ستكفيه مساوئه، فقال له الملك: ادن مني، فدنا منه، فوضع يده على فيه، مخافة أن يشتم الملك منه ريح الثوم، فقال الملك في نفسه: ما أرى فلانا إلا وقد صدق، وكان الملك لا يكتب بخطه إلا جائزة أو صلة، فكتب له كتاباً بخطه إلى عامل من عماله: إذا أتاك حامل كتابي هذا، فاذبحه، واسلخه، واحش جلده تبنا، وابعث به إلي، فأخذ الرجل الكتاب، وخرج، فلقيه الرجل الذي سعى به، فقال: ما هذا الكتاب؟ قال: خط الملك لي بصلة، فقال: هبه لي، فقال: هو لك، فأخذه، ومضى إلى العامل، فقال العامل: في كتابك: أن أذبحك، وأسلخك، قال: إن الكتاب ليس هو لي، الله الله في أمري حتى أرجع إلى الملك، فقال: ليس لكتاب الملك مراجعة، فذبحه، وسلخه، وحشا جلده تبنا، وبعث به، ثم عاد الرجل إلى الملك كعادته، وقال مثل قوله، فعجب الملك وقال: ما فعل الكتاب؟ قال: لقيني فلان،

---

[82] - انظر: إحياء علوم الدين للغزالي 3/154.

فاستوهبني إياه، فوهبته له، فقال الملك: إنه ذكر لي أنك تزعم أني أبخر، قال: ما فعلت، قال: فلم وضعت يدك على فيك؟ قال: كان أطعمني طعاما فيه ثوم، فكرهت أن تشمه، قال: صدقت، ارجع إلى مكانك، فقد كفاك المسيء مساوئه " . ([83]) ولهذا السبب وغيره جاء الأمر بالاستعاذة بالله من شر الحاسد، إذ يقول سبحانه: {قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق ومن شر غاسق إذا وقب ومن شرِّ النفاثات في العقد ومن شر حاسد إذا حسد}، (سورة الفلق).

3 - التملق لدى ذوي الوجاهة والسلطان إرضاء لهم أو طمعا فيما بأيديهم :

وقد يكون التملق لذوي الوجاهة والسلطان، إرضاء لهم أو طمعا فيما بأيديهم، هو السبب في الوقوع في آفة النميمة، ذلك أن نفرا من الناس يتصورون بفهمهم القاصر أن إرضاء ذوي الوجاهة والسلطان، أو الحصول على ما بأيديهم لا يتم إلا على أعراض الناس، والوشاية أو الوقيعة بينهم وقد نسوا، أو تناسوا أن ما عند الله، وما عند الناس لا يخاله المرء إلا بطاعته لله، وتفانيه في مرضاته تبارك وتعالى، إذ يقول سبحانه: {ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون} (الأعراف:96).
وإذ يقول النبي صلى الله عليه وسلم: "من أكل برجلٍ مسلم أكلة، فإن الله يطعمه مثلها من جهنم، ومن كسي ثوباً برجل مسلم، فإن الله يكسوه مثله من جهنم، ومن قام برجل مقام سمعة ورياء، فإن الله يقوم به مقام سمعة ورياء يـوم القيـامة " . ([84])

---

[83] - انظر: بدائع السلك في طبائع الملك لأبي عبد الله محمد بن الأزرق الأندلسي 2/514.

[84] - الحديث أخرجه أبو داود في السنن: كتاب االأدب: باب في الغيبة 4/275 رقم (4881) قال: حدثنا حيوة بن شريح المصري، حدثنا بقية، عن ابن ثوبان، عن أبيه، عن مكحول، عن وقاص بن ربيعة، عن المستورد أنه حدّثه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من أكل برجل مسلم...، الحديث، وعقب عليه المنذري بقوله: (في إسناده بقية بن الوليد، وعبد الرحمن بن ثابت ابن ثوبان وهما ضعيفان".

4 - الترويح عن النفس :

وقد يرى بعض الناس أن الخوض في الفضول والباطل، والسعي بين الناس بالقطيعة، والإفساد، إنما هو من قبيل التنفيس والترويح عن النفس ومن ثم فلا يتورع عن الوقوع في هذه الآفة، ناسيا أو متناسياً أن الترويح عن النفس بالخوض في الباطل والفضول، والسعي بين الناس بالقطيعة والإفساد لا يعود على المرء إلا بالقلق، والاضطراب النفسي؛ نظرا لأنه معصية، وللمعصية عواقب وخيمة، وآثار مهلكة أعظمها هذا القلق والاضطراب النفسي، مصداقاً لقوله سبحانه: {ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا} (طه: 124)، {ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا} (الجن:17).

5 - عدم قيام الأمة بواجبها نحو النمام بل استحسان عمله هذا :

وقد يكون عدم قيام الأمة - حكاماً ومحكومين - بواجبها نحو النمّام من تكذيبه، وزجره، وتخويفه، واستهجان عمله هذا، بل استحسان الأمة لمثل هذا العمل، قد يكون سبباً من الأسباب التي تؤدي إلى الوقوع في آفة النميمة.

وقد وعى السلف واجبهم نحو النمامين، فقطعوا الطريق عليهم بأداء هذا الواجب : هذا أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز يدخل عليه رجل، فيذكر له عن رجل شيئا، فيقول له أمير المؤمنن عمر: (إن شئت نظرنا في أمرك، فإن كنت كاذباً، فأنت من أهل هذه الآية: {إن جاءتهم فاسق بنبأ فتبيّنوا} (الحجرات: 6)، وإن كنت صادقا، فأنت من أهل هذه الآية: {هماز مشاء بنميم} (القلم:11)، وإن شئت عفونا عنك، فقال: العفو يا أمير المؤمنين، لا أعود إليه أبدا) . ([85])

---

[85] - انظر: إحياء علوم الدين للغزالي 3/153، 154.

وهذا سليمان بن عبد الملك يأتيه رجل - وعنده الإمام محمد بن مسلم بن شهاب الزهري - فيقول سليمان للرجل: "بلغني أنك وقعت في، وقلت كذا وكذا، فقال الرجل: ما فعلت، ولا قلت، فقال سليمان: إن الذي أخبرني صادق، فقالله الإمام الزهري: لا يكون النمام صادقاً، فقال سليمان: صدقت، ثم قال للرجل: اذهب بسلام " . ([86])

وهذا عمرو بن عبيد زعيم الخوارج يدخل عليه رجل، فيقول له: "إن الأسواري ما يزال يذكرك في قصصه بشر، فقال له عمرو: يا هذا، ما رعيت حقّ مجالسة الرجل حيث نقلت إلينا حديثه، ولا أديت حقي حين أ علمتني عن أخي ما أكره، ولكن أعلمه: أن الموت يعمنا، والقبر يضمنا، والقيامة تجمعنا، والله تعالى يحكم بيننا، وهو خير الحاكمين " . ([87])

وهذا الصاحب بن عباد يرفع إليه بعض السعاة رقعة نبه فيها على مال يتيم يحمله على أخذه لكثرته، فوقع الصاحب بن عتاد على ظهرها: "السعاية قبيحة، وان كانت صحيحة، فان كنت أجريتها مجرى النصح، فخسرانك فيها أفضل من الربح، ومعاذ الله أن نقبل مهتوكا في مستور، ولولا أنك في خفارة شيبتك لقابلناك بما يقتضيه فعلك في مثلك، فتوقَّ يا ملعون العيب، فان الله أعلم بالغيب، الميت رحمه الله، واليتيم جبره الله، والمال ثمَّره الله، والساعي لعنه الله " . ([88])

6 - العمل لحساب أفراد أو جهات مشبوهة :

وقد يكون العمل لحساب أفراد، أو جهات مشبوهة، هو السبب في الوقوع في آفة النميمة، ذلك أن هناك أفرادا وجهات مشبوهة لا تصل إلى مرادها إلا بالوقيعة، والسعاية بين الناس بالإفساد، مباشرة أو بواسطة آخرين من ذوي النفوس الضيقة، والقلوب المريضة، ومن ثم تنتشر وتشيع النميمة بين الناس

---

[86] - انظر: إحياء علوم الدين للغزالي 3/153، 154.
[87] - انظر: إحياء علوم الدين للغزالي 3/153، 154.
[88] - انظر: إحياء علوم الدين للغزالي 3/153، 154.

ولعل الفرقة الواقعة اليوم بين المسلمين بعامة، والجماعات الإسلامية في أنحاء الوطن العربي والإسلامي بخاصة نابعة من هذا السبب.

7 - نسيان الله والدار الآخرة:

وقد يكون نسيان الله، وأنه القوي القهار الفعال لما يريد، المطلع على كل شيء، الجامع الناس ليوم لا ريب فيه، المجازي كلا بما فعل، وكذلك نسيان الدار الآخرة، وما فيها من الأهوال والشدائد، أو السلامة والأمن، العذاب الدائم، أو النعيم المقيم، قد يكون هذا كله سبباً في الوقوع في النميمة، وصدق النبي الكريم إذ يقول: "إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت" . ([89])

8 - الغفلة عن العواقب الناشئة عن النميمة:

وأخيرا قد تكون الغفلة عن العواقب الناشئة عن النميمة - كما سنعرف بعد قليل - هي السبب في الوقوع في هذه الآفة، إذ من لا يقدر عواقب الشيء، ولا سيما إذا كانت هذه العواقب وخيمة، فإنه يتجرأ عليه، وإن كان في تجرئه هذا الحتف والهلاك .

رابعا: آثار النميمة:

وللنميمة آثار ضارة، وعواقب مهلكة على العاملين، وعلى العمل الإسلامي، ودونك طرفاً من هذه ا لآثار، وتلك العواقب:

أ - على العاملين،

فمن آثار النميمة على العاملين :

---

[89] الحديث أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب االأنبياء: باب منه 4/215 وكتاب الأدب: باب إذا لم تستح فاصنع ما شئت 8/35، وأبو داود في السنن: كتاب الأدب: باب في الحياء 4/252 رقم (4797)، وابن ماجه في السنن: كتاب الزهد: باب الحياء 2/1400 رقم (4183)، وأحمد في المسند 4/121، 122 كلهم من حديث أبي مسعود البدري رضي الله عنه مرفوعا به.

1 - قسوة القلب :

ذلك أن النميمة كغيرها من المعاصي والسيئات تسود القلب وتدنسه، فيصيبه المرض، ويظل هذا المرض يسري فيه حتى يموت، فتكون القسوة، والويل كل الويل لمن قسا قلبه كما قال سبحــانه: {فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مُبين} (الزمر: 22).

2 - نزع الثقة والهيبة من قلوب الناس :

وتنتهي النميمة بصاحبها إلى نزع هيبته والثقة به من قلوب الناس، من باب أن من نم لك نم عليك، وإذا نزعت هيبة المرء، وضاعت الثقة به من قلوب الناس احترقت كل أوراقه، ولم يبق له ما يعيش أو يحيا به بين الناس، فيكون قد حكم على نفسه بالموت، وإن بدا أنه واحد من الأحياء .

3 - الإفلاس :

وتنتهي النميمة كذلك بصاحبها إلى الإفلاس، إذ تضيع حسناته إن كانت له حسنات، الواحدة تلو الأخرى، بل ربما حط عليه من سيئات الآخرين إن لم تف حسناته بما عليه من مظالم وديون، وهذا ما لفت إليه النبي صلى الله عليه وسلم الأنظار حين قال لأصحابه: "أتدرون ما المفلس؟"، قالوا: المفلس فينا من لا درهم له، ولا متاع، فقال: "إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة، وصيام، وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه، أخذ من خطاياهم، فطرحت عليه، ثم طرح في النار" . ([90])

---

[90] - الحديث سبق تخريجه.

4 - سلب الأموال وانتهاك الأعراض وسفك الدماء :
ومن آثار النميمة على العاملين أيضاً: سلب الأموال، وانتهاك الأعراض، وسفك الدماء، وقد مرت بنا قصة العبد النمام، وكيف حرض سيده على مولاته حتى قتلها، ثم قتل بأيدي أقاربها، واشتعلت الحرب بين الفريقين.
ومن هذا الباب ما يقع لنفر من العاملين للإسلام على أيدي بعض الحكومات من انتهاك للأعراض، وسلب للأموال، وسفك للدماء، حيث تعمل الوشاية، والنميمة عملها في إشعال أوار هذه الحرب، ولو كان التثبت أو التبين لحقيقة ما يقوله هؤلاء النمامون والوشاة لما كان شيء من ذلك .

5 - التعرض لغضب الله وسخطه الموجبين للنار:
وأخيرا فإن النميمة تنتهي بصاحبها إلى التعرض لغضب الله وسخطه الموجبين للنار، فضلا عن عقاب الدنيا، إذ يقول سبحانه: {ولا يحيق، المكر السيء إلا بأهله فهل ينظرون إلا سنت الأولين فلن تجد لسنت الله تبديلا ولن تجد لسنت الله تحويلا}، (فاطر: 43).
وإذ يقول صلى الله عليه وسلم: "لا يدخل الجنة نمام " . ([91])

ب - على العمل الإسلامي:
ومن آثار النميمة على العمل الإسلامي:

1 - ا لفرقة والتمزق:
وذلك أن سماع النميمة إذا لم يكن معه تقوى الله، يؤدي إلى سوء الظن، ثم التجسس وتتبع العورات، ثم الغيبة، ثم الخصومة، ثم التدابر والتقاطع، أو الفرقة والتمزق، الأمر الذي يكون سببا في ذهاب ريحنا وطمع الأعداء فينا، على النحو الذي نعيشه نحن المسلمين اليوم على كل المستويات الداخلية،

[91] - الحديث سبق تخريجه.

والخارجية، الشعبية والقيادية، الفردية والجماعية، وصدق الله الذي يقول: {ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم} (آل عمـران: 105).
وقد حفظ لنا التاريخ الإسلامي من عصر النبوة إلى يومنا هذا صورا توضح هذا الأثر، وحسبنا منها ما ذكره ابن إسحاق، وغيره من كتاب السيرة النبوية: أن رجلا من اليهود مر بملأ من الأوس والخزرج، فساءه ما هم عليه من الاتفاق والألفة، فبعث رجلا معه، وأمره أن يجلس بينهم، ويذكر لهم ما كان من حروبهم يوم بعاث، وتلك الحروب، ففعل، فلم يزل ذلك دأبه، حتى حميت نفوس القوم، وغضب بعضهم على بعض، وتغاوروا، ونادوا بشعارهم، وطلبوا أسلحتهم، وتواعدوا إلى الحرة، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم، فأتاهم، فجعل يسكنهم ويقول: " أبدعوى الجاهلية، وأنا بين أظهركم" وتلا عليهم هذه الآية: {واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النّار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون} (آل عمران: 103)، فندمـوا على ما كـان منهم، واصطـلـحوا وتعـانـقوا، وألقـوا السـلاح رضـي الله عنهم . ([92])
وحسبنا ما كان بين إمامين جليلين من أئمة المسلمين: الأول: الحافظ أبو الفضل شهاب الدين أحمد بن علي، المعروف بابن حجر العسقلاني (ت 852 ه)، والآخر العلامة بدر الدين محمود بن أحمد المعروف بالعيني (ت 855 ه)، وكلاهما له شرح نفيس على صحيح البخاري، وقد كانا على صلة وثيقة، وصداقة وصحبه، وذهبا معا رفقة السلطان - في السفرة الحلبية - واستضاف العيني ابن حجر في بلدته عيتاب، فلبى الحافظ ذلك، وأخذ كل منهما عن الآخر، ثم سعى بينهما الوشاءون النمامون، فدب الخلاف بينهما، وتتبع كل منهما الآخر في كتبه ومؤلفاته،

[92] - انظر: سبل الهدى والرشاد في سيرة خير اللعباد لمحمد بن يوسف الصالحي 3/ 580 - 582.

ودروسه واملاءاته، وأول ما بدأ الخلاف بينهما على ما يحكي المؤرخون أن اتفق أن المئذنة التي بنيت على البرج الشمالي بباب زويلة للجامع المؤيدي بمصر، قد مالت، وكان العجني يدرس بالجامع المؤيدي آنذاك، فرسم محضر بهدمها، فقال ابن حجر معرضا بالعيني :

لجامع مولانا المؤيد رونـق منارته بالحسن تزهـو وبالزين
أصيب بعين، قلت ذا غلط فليس على جسمي أضرمن العين

فذكر بعض الجلساء للعيني أن ابن حجر عرض به، فغضب ورد عليه قائلا:

مـنارة كعروس الحسن إذ جليت وهـدمها بقضاء الله والقــدر
قالوا أصيبت بعين قلت ذا غلـط ما أوجب الهدم إلا خسة الحجر ([93])

ثم اتسع الخلاف بينهما، وإن كان ذلك لم يمنع كل واحد منهما من إنصاف الآخر والشهادة له بالفضل، ومتانة الدين، والكفاية العلمية، ولا سيما عندما يسأل أو يستشهد، وقاتل الله الوشاة النمامين.

2 - فتح الطريق أمام الناشئة وضعاف النفوس أن يقعوا في هذه ا لآفة :

وأخيرا، فإن شيوع النميمة في الأمة يفتح الطريق أمام الناشئة، وضعاف النفوس أن يقعوا في هذه الآفة، وحينئذ تتسع أسباب الفرقة والتمزق، ويكون العذاب الأليم .

---

[93] - انظر: الحافظ ابن حجر العسقلاني أمير اللمؤمنين في الحديث للأستاذ عبد الستار الشيخ ص 341- 345 بتصرف كثير .

خامسا: علاج النميمة :

وما دمنا قد وقفنا على أسباب وبواعث النميمة، وأدركنا آثارها الضارة، وعواقبها الوخيمة، فإنه يسهل علينا أن نرسم طريق الوقاية، والعلاج، وتتلخص في الخطوات التالية :

1 - المبادرة بعدم تصديق النمام، بل زجره، وتخويفه الله والدار الآخرة، فإن ذلك مما يقطع الطريق على النمام، ولا يجعله يستمرئ أو يتمادى، ويوقن المسلم أن مثل هذه الخطوة من باب {وأمر بالمعروف وانه عن المنكر} (لقمان:17).

2 - بغض النمام في الله بغضاً ينعكس على السلوك، وعلى طريقة المعاملة، فإن ذلك له أثر كبير في الإقلاع عن هذه الآفة، ولا سيما عند من لديهم بقية من خير أو ذرة من نور .

3 - تربية ملكة تقوى الله، ومراقبته في النفس، فإن هذه الملكة لها دور كبير في التخلص من العيوب والآفات ومن بينها النميمة، ثم التحلي بالفضائل والمنجيات .

4 - نقاء الوسط الذي يعيش فيه النمام، سواء أكان قريباً كالبيت، أم بعيدا كالمجتمع، فإن المرء ابن بيئته، وكم من أناس طهرت قلوبهم، وزكت جوارحهم واستقاموا على الطريق، بسبب عيشهم في وسط نقي نظيف .

5 - اليقين التام بأن ما عند الله لا ينال ل بالمعصية، والوقيعة أو الإفساد بين الناس، وإنما ينال بالطاعة والاستقامة: {ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشدّ تثبيتا وإذا لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما ولهديناهم صراطا مستقيما} (النساء: 66-68).

6 - دوام النظر في سيرة السلف، ومنهجهم في مقاومة النميمة ومعالجة النمامين، فإن ذلك له دور كبير في الاقتداء والتأسي، أو على الأقل المحاكاة والتشبه، وحينئذ يكون التخلص من النميمة .

7 - التذكير بعواقب النميمة والنمامين، سواء أكان ذلك على العاملين أم على العمل الإسلامي، وخير مذكر بذلك دوام النظر في كتاب الله - عز وجل - وسنة النبي صلى الله عليه وسلم، وواقع هذا الصنف من الناس .
8 - قيام أولي ا لأمر بواجبهم نحو النمامين، وذلك بزجرهم وتخويفهم، بل وتعزيرهم إن اقتضت المصلحة ذلك، وإن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن .
9 - مقاطعة النمام إن أصر على هذا الخلق الذميم، ولم تنفع معه الأساليب المتقدمة، وآخر الدواء الكي، حيث يقول صلى الله عليه وسلم: "من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان " . ([94])

[94] - الحديث سبق تخريجه.

الآفة الثامنة عشرة
فوضى الوقت

والآفة الثامنة عشرة التي يبتلى بها كثير من العاملين، بل لا يكاد يسلم منها أحد إنما هي: "فوضى الوقت"، ولا بد أن يتخلص منها من ابتلي بها، وأن يتوقاها، ويتجنبها من سلمه الله وعافاه منها.
وحتى يكون لدينا تصور واضح أو قريب من الواضح عن أبعاد ومعالم هذه الآفة، فإننا سنتناولها على النحو التالي:

أولا: تعريف فوضى الوقت :

لغة

الفوضى في اللغة تطلق على معنيين هما:
أ - اختلاط الأمور بعضها ببعض، يقال: نعام فوضى: أي مختلط بعضه ببعض، ويقال: أموالهم فوضى بينهم: أي هم شركاء فيها.
ب - والتساوي في ا لأمر أو الرتبة، يقال: قوم فوضى: أي متساوون لا رئيس لهم.
قال الأفوه الأودي:

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا ([95])

وعندي أنه لا تعارض بين المعنيين جميعا؛ لأن الأول لازم للآخر، ومنبثق عنه، ذلك أن التساوي في الأمر أو الرتبة يقتضي الاختلاط أو التداخل في هذا الأمر أو في هذه الرتبة.

اصطلاحا:

[95] - انظر: الصحاح في اللغة والعلوم لأسامة ونديم المرعشليين ص 882، والمعجم الوجيز - مجمع اللغة العربية- مصر، ص 484 بتصرف يسير.

أما في الاصطلاح فإن فوضى الوقت تعني خلط الأمور بعضها ببعض، والنظر إليها على أنها بدرجة واحدة من حيث الأهمية والفائدة، مع عدم التوفيق بين الواجبات والأوقات.

ثانيا: مظاهر فوضى الوقت، ووضع هذه الفوضى في ميزان الإسلام :

ولفوضى الوقت مظاهر كثيرة تدل عليها، أهمها:
1 - الاشتغال بثانويات، أو هوامش الأعمال عن أصولها وقلبها.
2 - إعطاء العمل البسيط فوق ما يستحق من الجهد، والوقت.
3- تضييع الساعات الطوال بغير عمل بالمرة.
4 - تراكم أكثر من عمل في وقت واحد، بل في لحظة واحدة.
وأما عن وضع فوضى الوقت هذه في ميزان الإسلام، فهي حرام، كما تلمح بذلك النصوص الكثيرة الناطقة بتحسر أقوام على أعمارهم التي ضيعوها بغير عمل يفيد، فيقول: {إن الله لعن الكافرين وأعدّ لهم سعيرا خالدين فيها أبدا لا يجدون وليا ولا نصيرا يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا} (الأحزاب: 63-66).
وأنهم يتمنون الرجوع إلى الدنيا ليتداركوا ما فاتهم من تقصير، فيقول: {حتى إذا جـاء أحدهم الموت قال ربي ارجعون لعلي أعمل صالحاً فيما تركت} (المؤمنون)، {وأنفقوا من ما رزقناكـم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكـن من الصالحين} (المنافقون: 10)، {ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكـون من المؤمنين} (الأنعام:27)، {هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نردّ فنعمل غير الذي كنا نعمل} (الأعراف: 53)، {وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمـل}(فاطر: 37).

وإذ يقول صلى الله عليه وسلم: "نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ " ، ([96]) "لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل: عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيما فعل، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه " . ([97]) ويشرح أو يبين الحق - تبارك وتعالى - حرمة هذه الفوضى بشكل أدق حين يذكر بنعمة الوقت، فيقول: {يُقلّب الله الليل والنهار إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار} (النور: 44)، {وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا} (الفرقان: 62)، {ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون} (القصص: 73).
ويقول صلى الله عليه وسلم لرجل وهو يعظه: "اغتنم خمسا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك" ، ([98]) "بادروا بالأعمال الصالحة سبعا: هل تنتظرون إلا فقرا منسيا، أو غنى مطغيا، أو مرضا مفسدا، أو هرما مفندا، أو موتاً مجهزا، أو الدجال فشر غائب ينتظر، أو الساعة فالساعة أدهى وأمر" . ([99])

---

[96] - الحديث أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب االرقاق: باب ما جاء في الرقاق وأن لا عيش إلا عيش الآخرة 8/109، والترمذي في السنن: كتاب الزهد: باب الصحة والفراغ نعمتان مغبون فيهما في كثير من الناس 4/550 رقم (2304)، وابن ماجه في السنن: كتاب الزهد: باب الحكمة 2/1396 رقم (4170)، والدارمي في السنن: كتاب الرقاق: باب في الصحـة والفـراغ 2/753 رقم (2607)، وأحمد في المسند 1/258، 344، كلهم من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنه مرفوعا.

[97] - الحديث أخرجه الترمذي في السنن: كتاب صفقة القيامة: باب في القيامة 4/612، رقم (2417) من حديث أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه مرفوعا به، وعقب عليه بقوله: "هذا حديث حسن صحيح "، وأخرج نحوه من حديث ابن مسعود، إلا أن فيه السؤال عن خمس بدل أربع، وعقب عليه بقوله: "هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم إلا من حديث الحسين بن قيس، وحسين بن قيس يضعف في الحديث من قبل حفظه"، ورواه الطبراني في المعجم الكبير 20/60، 61 بلفظ :لا تزول قدما عبد يوم القيامة، حتى يسأل عن أربع خصال: عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيم أنفقه، وعن علمه ماذا عمل فيه"، وأبي البزار في المسند رقم (2437) من كشف الأستار، وهو-كما قال خلدون الأحدب في سوانح وتأملات ص 18: صحيح بشواهده، والدارمي في السنن: المقدمة، باب من كره الشهرة والمعرفة 1/142 رقم (543) من حديث أبي برزة الأسلمي، ورقم (544، 545) من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه مرفوعا به، وبنحوه .

[98] - الحديث أخرجه الحاكم في المستدرك: كتاب الرقاق: باب نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ 4/306 من حديث ابن عباس رضي الله عنه مرفوعا، وعقب عليه قائلا: "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه"، وأقره الذهبي على ذلك في: التلخيص.

[99] - الحديث أخرجه الترمذي في السنن: كتاب اللزهد: باب ما جاء في المبادرة بالعمل 4/478 رقم (2306) من حديث أبي هريرة مرفوعا، وعقب عليه بقوله: "هذا حديث حسن غريب لا نعرفه من حديث الأعرج عن

ثالثا : أسباب فوضى الوقت :

والأسباب أو البواعث التي توقع في فوضى الوقت كثيرة، نذكر منها:

1 - الأسرة التي لا ترعى حرمة الوقت:

فقد ينشأ الإنسان في أسرة لا ترعى حرمة الوقت، ولا تعطي له أدنى رعاية أو أهمية، وتكون النتيجة التأثر، والتأثر الشديد بهذا الجو، أو بهذا المحيط من الفوضى، وتصبح لازمة من لوازم حياته، تسير معه إلى القبر إلا أن يتداركه الله برحمة منه وفضل، ويهيئ له صحبة صادقة طيبة، تأخذ بيده إلى احترام الوقت وتنظيمه، وتظل تتعهده، وترعاه حتى يقلع عن هذا الداء .

2 - الصحبة السيئة :

وقد تلقي المقادير بالإنسان في وسط من الصحبة السيئة، دأبها وديدنها ضياع الوقت، أو ملؤه بالتافه الضار، ويكون هو غير مكتمل الحصانة وحينئذ يتأثر بهم، ويظهر ذلك أول ما يظهر في وقته، فإذا به يهدره ويضيعه فيما لا طائل تحته، ولا فائدة ترجى من ورائه .

3 - عدم احترام ذوي الأسوة والقدوة لأوقاتهم:

وقد يكرم الله المسلم بصحبة طيبة، إلا أن ذوي التأثير والأسوة والقدوة في هذه الصحبة مصابون بفوضى الوقت، فيتأثر بهم، وخصوصا إن لم يعمل عقله، ويرى نفسه مسئولا وحده بين يدي ربه، وبمرور الزمن تصبح فوضى الوقت خلقا لازما له في حياته.

أبي هريرة إلا من حديث محرز بن هارون...".

4 - عدم تقدير قيمة الوقت:
وقد لا يعرف الإنسان قيمة الوقت، وأنه رأس ماله على ظهر هذه الأرض، وأنه إن ضاع ضاعت نفسه، وإن بقي بقيت نفسه. قد لا يعرف ذلك كله، فينشأ في نفسه، وفي سلوكه ما يسمى بفوضى الوقت.

5 - الركون إلى النعمة مع أمن مكر الله :
وقد يمن الله على الإنسان من فراغ، أو صحبة، أو شباب، أو غير ذلك فيطمس بهذه النعمة، ويركن إليها، وينسى أنه يمكن أن تصير إلى زوال في لحظة، ويأمن مكر الله، وتكون العاقبة إهدار الوقت، وتضييعه فيما لا يجدي، ولا يفيد، وتلك هي فوضى الوقت.

6 - الانفراد بالرأي وعدم المشورة:
وقد ينطلق الإنسان يعمل حسبما تسنح له الفرصة، معتمدا على رأيه دون الرجوع إلى أحد من ذوي الخبرة، والتجربة، والسداد، والرأي ومشاورته فيما يريد، وتكون العاقبة فوضى الوقت، حيث يشتغل بثانويات الأمور، ويضيع الأصول، أو الأساس، أو تتراكم عليه الأعمال فيقعد ولا يعمل شيئا بالمرة.

7 - عدم تقدير المرء لجهده وطاقته:
وقد لا يقدر المرء جهده، وطاقته، ويظن أن لديه القدرة على عمل كل شيء، ويأخذ في العمل، ويصادف أنه لم ينجز شيئا، ويصير من أصحاب أنصاف أو أثلاث، أو أرباع الأعمال. كما قيل: الذي يعمل كل شيء لا يعمل شيئا، وهذه هي فوضى الوقت.

8 - عدم المتابعة والمحاسبة:

وقد يحرم الإنسان ممن يتابعه، ويحاسبه على عمله، وعلى خطواته أولا بأول، وتكون النتيجة فوضى الوقت حيث يضيع الوقت في غير عمل بالمرة، أو في عمل هامشي لا يسمن ولا يغني من جوع.

9 - المعصية، وإهمال النفس من التزكية:

وقد يقع الإنسان في المعصية، ولا سيما الصغير منها، ويهمل التوبة والتخلص منها، بل يهمل تزكية نفسه التي هي سبب بركة الوقت وامتداده، أو اتساعه، وحينئذ يبتلى بفوضى الوقت، إذ يقول صلى الله عليه وسلم في الحديث: "من سره أن يبسط له في رزقه، أو ينسأ له في أثره فليصل رحمه" . ([100])

والعلماء مختلفون في تحديد معنى الإنساء على نحو ما ذكر الحافظ ابن القيم في كتابه الداء والدواء، إذ يقول:

"وقد اختلف الناس في هذا الموضع، فقالت طائفة: نقصان عمر العاصي هو ذهاب بركة عمره، ومحقها عليه، وهذا حق، وهو بعض تأثير المعاصي، وقالت طائفة : بل تنقصه حقيقة، كما تنقص الرزق، فجعل الله سبحانه للبركة في الرزق أسباباً كثيرة تكثره، وتزيده، وللبركة في العمر أسبابا تكثره، وتزيده.

قالوا: ولا يمتنع زيادة العمر بأسباب، كما ينقص بأسباب، فالأرزاق، والآجال، والسعادة، والشقاوة، والصحة، والمر ض، والغنى، والفقر، وإن كانت بقضاء الرب - عز وجل - فهو يقضي ما يشاء بأسباب جعلها لمسبباتها مقتضية له.

وقالت طائفة أخرى: تأثير المعاصي في محق العمر إنما هو بأن حقيقة الحياة هي حياة القلب، ولهذا جعل الله - سبحانه -

---

[100] - الحديث أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب االبيوع: باب من أحبّ البسط في الرزق 3/73، وكتاب الأدب: باب من بسط له في الرزق بصلة الرحم 8/6، ومسلم في الصحيح: كتاب البر والصلة: باب صلة الرحم 4/1982 رقم (2557)، وأبو داود في السنن:كتاب الزكاة باب في صلة الرحم 2/132، 133 رقم (1693)، وأحمد في المسند 3/156، 247، 266، كلهم من حديث أنس إلا البخاري في الرواية الثانية، فإنها من حديث أبي هريرة.

الكافر ميتا غير حي، كما قال تعالى: {أموات غير أحياء} (النحل: 21).
فالحياة في الحقيقة حياة القلب، وعمر الإنسان مدة حياته، فليس عمره إلا أوقات حياته بالله، فتلك ساعات عمره، فالبر، والتقوى، والطاعة تزيد في هذه الأوقات التي هي حقيقة عمره، ولا عمر له سواها.
وبالجملة، فالعبد إذا أعرض عن الله، واشتغل بالمعاصي، ضاعت عليه أيام حياته الحقيقية التي يجد غبّ إضاعتها يوم يقول: {يا ليتني قدّمت لحياتي} (الفجر: 24). فلا يخلو إما أن يكون له مع ذلك تطلع إلى مصالحه الدنيوية، والأخروية أولا، فإن لم يكن له تطلع إلى ذلك، فقد ضاع عليه عمره كله، وذهبت حياته باطلاً. وإن كان له تطلع إلى ذلك طالت عليه الطريق بسبب العوائق، وتعسرت عليه أسباب الخير بحسب اشتغاله بأضدادها، وذلك نقصان حقيقي من عمره.
وسر المسألة: أن عمر الإنسان مدة حياته، ولا حياة له إلا بإقباله على ربه والتنعم بحبه، وذكره، وإيثار مرضاته" .[101]

10 - الغفلة عن واقع الأعداء:

وقد ينسى المرء واقع الأعداء، وأنهم يعملون بالليل والنهار، ولا يسمحون لأنفسهم بتضييع لحظة بغير عمل، وبغير كيد لله ولرسوله، ولجماعة المسلمين الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، ويلتزمون بهدي السماء، قد ينسى المسلم ذلك، فيهمل الانتفاع بوقته، وحينئذ يصاب بفوضى الوقت.

---

[101] - انظر: الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي لابن القيم ص 57، ولمزيد من البيان في تحديد معنى الإنساء يراجع: غاية البيان في شرح مختارات من السنن لكاتب هذه السطور ص 19 - 23.

11 - الغفلة عن عواقب فوضى الوقت:

وقد تغيب عواقب فوضى الوقت الدنيوية والأخروية عن بال المسلم فإذا به يهدر وقته، ولا ينتفع به، أو ينتفع به فيما لا جدوى من ورائه، وحين يأتيه الموت يبكي ندماً، ويتمنى التأخير لتدارك ما فات، وأنى له ذلك، وقد قال الله تعالى: {ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون} (المنافقون:11).

12 - الدخول في العمل بغير تنظيم وتخطيط:

وقد يدخل الإنسان في العمل مهملا قواعد التنظيم، والتخطيط لواجباته ولطاقاته، بل للواجب الواحد، وحينئذ يأخذ في التضييع والتفريط، وتكون فوضى الوقت.

رابعا: آثار فوضى الوقت:

ولفوضى الوقت آثار مهلكة، وعواقب خطيرة، سواء على العاملين أو على العمل الإسلامي، ودونك طرفا من هذه ا لآثار.

أ - على العاملين :

أما عن آثار فوضى الوقت على العاملين فكثيرة، نذكر منها :

1 - ضياع العمر بغير فائدة، أو بفائدة لا تذكر:

ذلك أن الفوضوي في وقته، تمر عليه أوقات كثيرة بغير عمل، أو بعمل هامشي لا يكاد يذكر، وتكون النتيجة الأخيرة، والمحصلة النهائية ضياع العمر كله بغير فائدة، أو بفائدة قليلة الجدوى، ضئيلة النفع، وهذا هو الغبن الذي نبه إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله: "نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ" . ([102])

[102] - الحديث سبق تخريجه.

وهو الذي قصد إليه حكيم من الحكماء حين قال: من أمضى يوما من عمره في غير حق قضاه، أو فرض أداه، أو مجد أثله، أو حمد حصله، أو خير أسسه، أو علم اقتبسه، فقد عق يومه وظلم نفسه . ([103])

2 - القلق والاضطراب النفسي:

ذلك أن الفوضوي في وقته ينسى نفسه من التزكية، أو يزكيها بما لا يشبعها ولا يشفيها، بل ربّما وقع في المعاصي والسيئات كما شهد بذلك الواقع، وأشار إليه بعض الحكماء إذ قال: "من الفراغ تكون الصبوة" ، ([104]) وتكون النتيجة مرض القلب وموته، وبعبارة أخرى قسوته، الأمر الذي يؤدي إلى القلق والاضطراب النفسي، كما يفهم من قوله تعـالى: {ومن يؤمن بالله يهد قلبه}(التغابن:11)، {الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب} (الرعد: 28)، {الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون} (الأنعام: 82).

3 - الذل والهوان في الدنيا:

ذلك أن الفوضوي في وقته إنما هو واقف في محله، أو يتحرك حركة بطيئة لا تسمن ولا تغني من جوع، في الوقت الذي لا يكف فيه الباطل، ولا يفتر عن العمل لحظة واحدة، ومثل هذا سيأتي عليه لحظة، لا يتمكن فيها حتى من التنفس العادي، فضلا عن الحركة والتأثير في غيره، فيقضى حياته ذليلا مهينا، كما يقول سبحانه: {ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا} (طه: 124).

4 - الحسرة والندامة يوم القيامة:

---

[103] - انظر: فيض القدير للمناوي 6/288.
[104] - انظر: فيض القدير للمناوي 6/288.

ذلك أن الفوضوي في وقته، يلقى ربه يوم القيامة بغير ما يرضيه وتكون العاقبة الحسرة والندامة، بل وتمني العودة إلى الدنيا للتدارك، والإصلاح كما يقول سبحانه: {أن تقول نفس يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين} (الزمر: 56)، {وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى يقول يا ليتني قدمت لحياتي} (الفجر: 23-24)، {حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلي أعمل صالحا فيما تركت} (المؤمنون: 99)، {وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل}(فاطر: 37).

ب - على العمل الإسلامي:

وأما عن آثار فوضى الوقت على العمل الإسلامي فتتلخص في:

1 - الفرقة والتمزق:

ذلك أن الفوضوي في وقته يقصر في حق الآخرين، فلا يرعى الآداب الاجتماعية، وتكون العاقبة النفور والقطيعة، الأمر الذي يؤدي إلى الفرقة والتمزق، ثم تمكين العدو من رقابنا واستغلاله لخيرنا، وثرواتنا.

2 - الحصار والتطويق:

ذلك أن فوضوي الوقت، إنما يفسح الطريق أمام الباطل لحصار العمل الإسلامي وتطويقه، بل وتشديد القبضة عليه، ولا سيما أن هذا الباطل حريص كل الحرص على الانتفاع بوقته وتوظيفه فيما يحقق له أهدافه، ويوصله إلى غاياته.

3 - طول الطريق، وكثرة التكاليف:

أو على الأقل تؤدي فوضى الوقت إلى طول الطريق، وكثرة التكاليف نظرا لتربص الباطل بالعمل الإسلامي، وعدم انتفاع

هذا العمل بوقته في إبطال هذا التربص، وتفادي شرره وأخطاره.
ولقد أشار الإمام المودودي وهو يخاطب الدعاة إلى هذا الأثر والذي قبله بقوله:
"اسمحوا لي أن أقول لكم: إنكم إذا خطوتم على طريق هذه الدعوة بعاطفة أبرد من تلك العاطفة القلبية التي تجدونها في قلوبكم نحو أزواجكم وأبنائكم، فإنكم لا بد أن تبوءوا بالفشل الذريع، بفشل لا تتجرأ بعده أجيالنا القادمة على أن تفكر في القيام بحركة مثل هذه إلى مدة غير وجيزة من الزمان، عليكم أن تستعرضوا قوتكم القلبية والأخلاقية، قبل أن تهتموا بالخطوات الكبيرة " . ([105])

خامسا: علاج فوضى الوقت:

وما دمنا قد وقفنا على الأسباب أو البواعث التي أدت إلى فوضى الوقت، فإنه من السهل معرفة طريق العلاج، ويمكن تلخيصها فيما يلي:

1 - اليمين بأن الوقت هو رأس المال على ظهر هذه الأرض:

بأن يضع المسلم في حسابه أن وقته هو رأس ماله على ظهر هذه الأرض، والتفريط فيه، أو عدم شغله بالنافع المفيد يعني خسارة الدنيا والآخرة أو خسارة الآخرة على الأقل، وتلك هي الخسارة التي لا خسارة بعدها، إذ يقول الحق - تبارك وتعالى: {إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين}(الزمر: 15)، فإن ذلك من شأنه أن

[105] - انظر: مجلة الأمل التي تصدرها رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا الشمالية، عدد رمضان رقم 131 ص 11 - 15 نقلا عن: تذكرة دعاة الإسلام للمودودي ص 57 -59.

يحمل المسلم على تنظيم وقته، وملئه بما يعود عليه وعلى أمته بالخير العظيم.

2 - اليقين بضخامة المسئولية غدا:

وأن يوقن المسلم بضخامة المسئولية غدا بين يدي الله - عز وجل - إذ الوقت من بين ما يسأل عنه العبد يوم القيامة كما جاء في الحديث: "لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن شبابه فيما أفناه، وعن عمره فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيم أنفقه، وعن علمه ماذا عمل فيه" . ([106])

3 - دوام النظر في سيرة السلف:

وأن يديم المسلم النظر في سيرة السلف، وكيف كان حرصهم على الوقت بل واستغلاله استغلالا صحيحا حقيقيا، ولا سيما العلماء والدعاة والمجاهدون، فقد كان هؤلاء يستغلون أوقاتهم استغلالا يدور بين القراءة، والسماع، والإسماع، وقراءة القرآن، والذكر، والدعاء، والتوبة، والاستغفار، والصلوات، وسائر أعمال البر والخيرات.

هذا أبو بكر الأنباري يدخل عليه الطبيب في مرض موته، فينظر إلى مائه - يعني بوله - ويقول له: قد كنت تفعل شيئا لا يفعله أحد، ثم يخرج فيقول: ما يجيء منه شيء. ويعود إليه ويسأله: ما الذي كنت تفعل؟ فيقول له أبو بكر -رحمه الله -: كنت أعيد في كل أسبوع عشرة آلاف ورقة . ([107])

وهـا هي امرأة الحافظ محمد بن مسلم المعروف بابن شهاب الزهري، المحدث المشهور المتوفي 124 هـ، تشكو من تعلق

---

[106] - الحديث أخرجه الطبراني في الكبير 11/1022 رقم (11177)، والطبراني في الأوسط 9/155 رقم (9456)، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد: كتاب البعث: باب ما جاء في الحساب 10/349 وعقب عليه بقوله: "رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وفيه حسين بن الحسن الأشقر وهو ضعيف جدا وقد وثقه ابن حبان مع أنه يشتم السلف،، كلهم من حديث ابن عباس في به.

[107] - انظر: الوقت عمار أو دمار لجاسم المطوع 1/45 نقلاًعن وصايا ونصائح لطالب العلم.

زوجها بالكتب، وطول معايشته لها فتقول: والله، إن هذه الكتب أشد علي من ثلاث ضرائر . ([108])
وهذا الشيخ عبد العظيم المنذري (صاحب كتاب الترغيب والترهيب المتوفى 656 ه) يحكي عن إسحاق بن إبراهيم بن عيسى المرادي، فيقول: ولم أر، ولم أسمع أحدا أكثر اجتهادا منه في الاشتغال، كان دائم الاشتغال في الليل والنهار، وقد جاورته في المدرسة - يعني القاهرة - بيتي فوق بيته، اثنتي عشرة سنة، فلم أستيقظ في ليلة من الليالي، في ساعة من ساعات الليل إلا وجدت ضوء السراج في بيته، وهو مشتغل بالعلم، وحتى كان في حال الأكل، والكتاب والكتب عنده يشتغل فيها . ([109])
وهذا العلامة ابن الجوزي (المتوفى 597 ه) يقول عن نفسه: وإني أخبر عن حالي، ما أشبع من مطالعة الكتب، وإذا رأيت كتاباً لم أره، فكأني وقعت على كنز، فلو قلت: إني قد طالعت عشرين ألف مجلد كان أكثر، وأنا بعد في طلب الكتب، فاستفدت بالنظر فيها ملاحظة سير القوم، قدر همهم، وحفظهم، وعاداتهم، وغرائب لا يعرفها من لم يطالع . ([110])
وهذا الحافظ ابن قيم الجوزية - رحمه الله - يقول: وأعرف من أصابه مرض من صداع، وحمى، وكان الكتاب عند رأسه، فإذا وجد إفاقة قرأ فيه، فإذا غلب وضعه، فدخل عليه الطبيب يوما وهو كذلك، فقال: إن هذا لا يحل لك، فإنك تعين على نفسك، وتكون سببا لفوات مطلوبك . ([111])
وهذا عبد الرحمن بن تيمية ينقل عن أبيه، عن جده، فيقول: كان الجد إذا دخل الخلاء، يقول لي: اقرأ في هذا الكتاب، وارفع صوتك حتى أسمع . ([112])

---

[108] - انظر: شذرات الذهب لابن العماد 1/63.
[109] - انظر: الوقت عمار أو دمار لجاسم المطوع 1/51، 52 نقلاً عن بستان العارفين.
[110] - انظر: الوقت عمار أو دمار لجاسم المطوع 1/51، 52 نقلاً عن الآداب الشرعية للمقدسي 2/267.
[111] - انظر: روضة المحبين، ونزهة المشتاقين لابن القيم ص 70.
[112] - انظر: الوقت عمار أو دمار 1/32 نقلا عن الآداب الشرعية للمقدسي.

وهذا أبو عثمان أحد شيوخ البخاري يقول: ما سألني أحد حاجة إلا قمت له بنفسي، فإن تم، وإلا قمت له بمالي، فإن تم، وإلا استعنت له بالإخوان، فإن تم وإلا استعنت له بالسلطان . ([113])
وهذا الليث بن سعد - رحمه الله - كان يجلس للمسائل، يغشاه الناس فيسألونه، ويجلس لحوائج الناس، لا يسأله أحد من الناس فيرده، كثرت حاجته، أو صغرت . ([114])
وهذا الخطيب البغدادي يقول: سمعت علي بن عبيد الله بن عبد الغفار اللغوي، يحكي أن محمد بن جرير الطبري المتوفى 310 ه - عن ثلاث وثمانين سنة- مكث أربعين سنة يكتب في كل يوم أربعين ورقة . ([115])
وهذا الإمام حسن البنا- رحمه الله - يقول عن نفسه: لقد استدعيت في دار الشبان حتى أقول رأيي في كتاب: (مستقبل الثقافة في مصر لطه حسين) بعد خمسة أيام، ولما لم أكن أستطع التحلل من مواعيد كنت مرتبطا بها في خلال الأيام الخمسة، فلم أجد وقتا أخصصه لقراءة هذا الكتاب إلا فترة ركوبي الترام في الصباح إلى مدرستي، وفترة رجوعي منها في الترام، قال:
فقرأت الكتاب - لأنه لم يكن كبيرا - وكنت أضع علامات بالقلم الرصاص على فقرات معينة، ولم تمض الأيام الخمسة، حتى كنت قد استوعبت الكتاب كله . ([116])
وهذا المرحوم عمر التلمساني، يقول عن نفسه: أقبلت على القراءة الدينية، فقرأت تفسير الزمخشري، وابن كثير، والقرطبي، وسيرة ابن هشام، وغيرها من السير... قرأت أسد الغابة، والطبقات الكبرى، ونهج البلاغة، والأمالي، والعقد الفريد

---

[113] - انظر: الوقت عمار أو دمار 1/32 نقلا عن الآداب الشرعية للمقدسي.
[114] - انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان 4/131.
[115] - انظر: تاريخ بغداد 2/163، وعنه نقل: خلددون الأحدب في: سوانح وتأملات ص 30.
[116] - انظر: الوقت عمار أو دمار لجاسم المطوع 1/49 .

لابن عبد ربه، والمخصص لابن سيده، وصحيح البخاري، وصحيح مسلم من جلده، إلى جلده . ([117])
وهذا الأستاذ علي طنطاوي يقول: لو أحصيت معدل الساعات التي كنت أطالع فيها لزادت على عشر في اليوم، لأنني منذ الصغر شبه معتزل، بعيد عن المجتمع، فلو جعلت لكل ساعة عشرين صفحة، أقرأ من الكتب الدسمة نصفها، ومن الكتب السهلة نصفها، لكان لي في كل يوم مائتا صفحة في اليوم. فاحسبوا كم صفحة قرأت من يوم تعلمت النظر في الكتب، وامتدت يدي إليها سبعين سنة، في كل سنة اثنا عشر شهراً، في كل شهر ثلاثون يوما، في كل يوم مائة صفحة، فإن هالكم الرقم، فاحسموا منه نصفه فكم يبقى؟ كنت ولا أزال أقرأ في كل علم: في التفسير، وفي الحديث، وفي الفقه، وفي التاريخ، وفي الأدب: الأدب العربي، والأدب الفرنسي. وفي العلوم على تنوعها وتعددها بدأت اليوم أقرأ سنة 1335 ه، ونحن اليوم في سنة 1405 ه وأنا أقرأ أكثر ساعات ليلي ونهاري، فلو قدرت لكل يوم مائة صفحة - وأنا أقرأ أضعافها - لكان مجموع ما قرأت مليونين ونصف من الصفحات، وكتبت ما لم يكتب أكثر منه مما أعرف إلا قليلا، كالأمير شكيب أرسلان، والأستاذ العقاد، وأمثالهما، وان كان أمثالهما قلة من أصحاب القلم الفياض، والذي نشر مما كتبت يزيد على ثلاث عشرة ألف صفحة، وما ضاع مني مثله، أو أكثر منه . ([118])
وهذا الشيخ عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء بالجزائر يصفه أحد الكتاب بقوله: ولقد تميز ابن باديس في حياته كلها باحترام الوقت والنظام فكان - رحمه الله - رجل علم ونظام يحافظ على أوقاته، فكان برنامجه اليومي، مما يصعب على الكثير أن يقوم به، حيث يبدأ نهاره من قبيل صلاة الفجر بالمرور على مساكن طلاب الجامع الأخضر ليتأكد من

---

[117] - انظر: الوقت عمار أو دمار لجاسم المطوع 1/49 .
[118] - انظر: الوقت عمار أو دمار لجاسم المطوع 1/50، 51 نقلا عن: سوانح وتأملات في قيمة الزمن ص 34.

استيقاظهم لأداء صلاة الفجر، وبعد الصلاة يشرع في التدريس حتى الشروق، فيتناول إفطاره، ويعود إلى التدريس حتى صلاة الظهر، ثم يعاود التدريس من صلاة العصر حتى ما بعد صلاة العشاء، وقد بلغت الدروس التي يلقيها في اليوم الواحد خمسة عشر درساً . ([119])
إن الوقوف على أمثال هذه السير وغيرها يجعل المسلم يراجع نفسه بالنسبة لوقته، ويجتهد أن يملأه بالنافع المفيد اقتداءً وتأسياً، أو على الأقل محاكاة، وتشبهاً بذوي الفضل، والحكمة.

4 - الدعاء والضراعة إلى الله بالبركة في الوقت:

وأن يلزم المسلم الدعاء والضراعة إلى الله الذي بيده مقاليد السموات والأرض أن يبارك له في وقته، وأن يوفقه لملئه بالنافع المفيد، إذ الدعاء سهام نافذة، ولا سيما إذ وقع في الأوقات التي ترجي فيها الإجابة كوقت السحر وفي السفر، وعند الاضطرار، ونحوها، ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم القدوة والأسوة، إذ كان من دعائه قوله: "اللهم بارك لأمتي في بكورها " . ([120])

5 - الزهد في الدنيا مع الرغبة في الآخرة:

وأن يزهد المسلم في الدنيا بأن تكون في يده لا في قلبه، وأن تكون من حلال، وأن يؤدي حق الله فيها، بل أن يتنازل عنها جميعا لله إن اقتضت الحال ذلك، مع الرغبة القوية في الآخرة،

---

[119] - انظر: عبد الحميد بن باديس للأستاذ مازنن صلاح مطبقاني ص 42.
[120] - الحديث أخرجه أبو داود في السنن: كتاب االجهاد: باب في الابتكار في السفر 3/35 رقم (2606) من حديث صخر بن وداعة الغامدي، وابن ماجه في السنن: كتاب التجارات: باب ما يرجى من البركة 2/752 رقم (2236) من حديث صخر الغامدي، ورقم (2237) من حديث أبي هريرة، ورقم (2238) من حديث ابن عمر، وإسناده - كما في مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه للبويصري - ضعيف، لضعف عبد الرحمن بن أبي بكر الجدعاني، والدارمي في السنن: كتاب السير: باب بارك لأمتي في بكورها 2/661 رقم (2435) من حديث صخر الغامدي، وأحمد في المسند 1/154، 155، 156 من حديث علي بن أبي طالب 3/416، 417، 432، 4/384، 390، 391 من حديث صخر الغامدي مرفوعا.

فإن ذلك من شأنه أن يحمله على التشمير الدائم، والحرص ألا تمر عليه لحظة بغير طاعة تقربه إلى الله - تبارك وتعالى.
قيل للإمام الزهري مرة: ما الزهد؟ قال: ليس تشعيث اللمة، ولا قشف الهيئة - أي ليس شعث الرأس، ولا اغبرار الهيئة - ولكنه صرف النفس عن الشهوة . ([121])
وقال أحد الزهاد: ما علمت أن أحدا سمع بالجنة والنار تأتي عليه ساعة لا يطيع الله فيها بذكر، أو صلاة، أو قراءة، أو إحسان، فقال له رجل: إني أكثر البكماء، فقال: إنك إن تضحك وأنت مقر بخطيئتك خير من أن تبكي وأنت مدل - أي منبسط بعملك - وإن المدل لا يصعد عمله فوق رأسه.
فقال: أوصني، فقال: دع الدنيا لأهلها. وكن في الدنيا كالنحلة إن أكلت أكلت طيبا، وإن أطعمت أطعمت طيبا، وان سقطت على شيء لم تكسره، ولم تخدشه . ([122])

6 - التخلص من الصحبة السيئة مع الارتماء في أحضان الصحبة الطيبة:

وأن يحرص المسلم علف تخب الصحبة السيئة مع الإلقاء بالنفس بين أحضان الصحبة الطيبة، فإن هذا من شأنه أن يحفظ على المسلم أوقاته، وأن تنفق في النافع المفيد، وفي الخبر: "من يرد الله به خيرا يهده خليلا صالحا، إن نسي ذكره،وإن ذكر أعانه" ، ([123]) " ألا أنبئكم بخير الناس؟ " قالوا: بلى يا رسول الله، قال: "من تذكركم رؤيته بالله عز وجل" ، ([124]) "اصحب من يدلك على الله حاله، ومن يعرفك بالله مقاله" . ([125])

---

[121] - انظر: تذكرة الدعاة للأستاذ البهي الخوللي ص 174، وعنه نقل للشيخ جاسم المطوع في الوقت عمار أو دمار 1/77.
[122] - انظر: الفوائد لابن القيم ص 118، وعنه ننقل الشيخ جاسم المطوع في : الوقت عمار أو دمار 1/76، 77.
[123] - الأثر سبق تخريجه في الجزء الأول، آفة: "العزلة".
[124] - الحديث أخرجه البيهقي في شعب الإيمان: بباب في مباعدة الكفار والمفسدين 7/57 رقم (9446) من حديث عبد الله بن عباس.
[125] - الحديث سبق تخريجه.

7 - تنظيم الأسرة للوقت مع شغله بالنافع المفيد:
وأن تحرص الأسرة على تنظيم أوقات المنتمين إليها مع شغل هذه الأوقات بالنافع المفيد، فوقت للراحة والنوم، ووقت للطعام والشراب، ووقت لتحسين وتقوية الصلة بالله عز وجل، ووقت للترفيه عن النفس، ووقت لرعاية الآداب الاجتماعية، وهكذا دواليك، فإن هذا التنظيم مع الشغل من شأنه أن يبني في النفس الحرص على الوقت، وعدم تضييع لحظة منه بغير ثمرة أو عمل .

8 - الحرص على المشورة وعدم الانفراد بالرأي:
وأن يحرص المسلم ألا يبرم أمرا دون أخذ الرأي والمشورة، فإن ذلك من شأنه أن يدل المسلم على النافع المفيد، بل وعلى الأولويات والمهمات، فلا تضيع منه لحظة بغير عمل نافع، أو ثمرة حلوة .

9 - معرفة المرء قدر نفسه :
وأن يكون المسلم عارفا قدر نفسه، مدركا حدود جهده، فلا يزعم لنفسه ما ليس من شأنها، ولا يدخل فيما لا يجيد، إذ أن هذا من شأنه أن ينظم الوقت، وأن يشغله بالنافع المفيد الذي هو في حدود الطاقة والوسع .

10 - الاحتراز من المعاصي مع الإكثار الطاعات:
وأن يحترز المسلم من المعاصي والسيئات، وإن وقع في شيء منه فليبادر بالتوبة والإقلاع، مع الإكثار من الطاعات، فإن ذلك يكون سببا في بركه الوقت وسعة الرزق، مصداقا لقوله صلى الله عليه وسلم: "من سره أن يبسط له في رزقه أو ينسأ له في أثره، فليصل رحمه " . ([126])

---

[126] - الحديث سبق تخريجه.

11 - احترام ذوي الأسوة والقدوة لأوقاتهم مع شغلها بالنافع المفيد :

وأن يحرص ذوو الأسوة والقدوة على تنظيم أوقاتهم، مع شغلها بالنافع المفيد، واضعين في حسابهم أن الناس يصنعون كما يصنعون في الغالب دون أن يعملوا فكرهم، ودون أن يسألوا : هل هذا موافق للهدي الرباني أو غير موافق . وأنهم إن أهملوا هذا الجانب فقد سنوا لغيرهم سنة سيئة عليهم وزرها، ووزر العاملين بها إلى يوم القيامة، وإن اهتموا بهذا الجانب فقد سنوا لغيرهم سنة حسنة لهم ثوابها، وثواب العاملين بها إلى يوم القيامة .

12 - الخوف من الله مع عدم الركون إلى النعمة:

وأن يصحب المسلم معه في سفره إلى ربه خلق الخوف منه وعدم أمن مكره أو عذابه، مع عدم الركون إلى النعمة، فإن ذلك إن توفر للمسلم صار سوطا يلهب ظهره، ويحمله على تنظيم وقته، وشغله بالنافع المفيد، ويصدق ذلك ما أثر عن السلف .

وحسبنا هنا : ما جاء عن سيدنا عمر بن عبد العزيز، إذ تقول عنه زوجه فاطمة بنت عبد الملك : ما رأيت أحدا أكثر صلاة، ولا صياما منه، ولا أحدا أشد فرقا من ربه منه، كان يصلي العشاء، ثم يجلس يبكي حتى تغلبه عيناه، ثم ينتبه، فلا يزال يبكي حتى تغلب عيناه، ولقد كان معي في الفراش، فيذكر الشيء من أمر الآخرة فينتفض كما ينتفض العصفور من الماء، ويجلس يبكي، فأطرح عليه اللحاف . ([127])

وحسبنا هنا كذلك ما جاء عن الإمام أبي حنيفة - النعمان بن ثابت -إذ يقول عنه صاحبه يزيد بن الكميت :

كان أبو حنيفة شديد الخوف من الله تعالى، فقرأ بنا علي بن الحسين المؤذن ليلة في العشاء الآخرة سورة {إذا زلزلت}

[127] - انظر: البداية والنهاية لابن كثير 9/2044، وعنه نقل الشيخ جاسم المطوع في الوقت عمار أو دمار 1/80.

وأبو حنيفة خلفه، فلما قضى الصلاة، وخرج الناس، نظرت إلى أبي حنيفة وهو جالس يتفكر ويتنفس فقلت: أقوم لا يشتغل قلبه بي، فلما خرجت تركت القنديل، ولم يكن فيه إلا زيت قليل، فجئت وقد طلع الفجر، وهو قائم، وقد أخذ بلحية نفسه، وهو يقول: يا من يجزي بمثقال ذرة خير خيرا، ويا من يجزي بمثقال ذرة شر شرا، أجر النعمان عبدك من النار، ومما يقرب منها من السوء وأدخله في سعة رحمتك، قال: فأذنت، وإذا بالقنديل يزهر، وهو قائم فلما دخلت قال لي: تريد أن تأخذ القنديل؟ قلت: قد أذنت لصلاة الغداة "- فقال: اكتم ما رأيت، وركع ركعتين، وجلس حتى أقمت الصلاة، وصلى معنا . ([128])

13 - الحرص على التنظيم والتخطيط لأي عمل من الأعمال:

وأن يحرص المسلم ألا يدخل في أي عمل من الأعمال وإن كان بسيطا إلا بالتنظيم والتخطيط، فإن هذا من شأنه استغلال الوقت أحسن استغلال مع توفير الجهد، والتقليل من التكاليف والتضحيات، وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم غاصة بالنماذج الناطقة بحرصه صلى الله عليه وسلم على التنظيم والتخطيط ولو لأبسط الأعمال.

فمثلا ما كان ينام في سفر أو حضر إلا ويكلف من يكلأ الوقت، ويراقبه، وما كان يأكل أو يشرب إلا بنظام أو ترتيب خاص، وما كان يغزو أو يسالم إلا وفق تنظيم وتخطيط، وهكذا سائر حياته وأعماله صلى الله عليه وسلم.

14 - البصيرة بواقع الأعداء، والعواقب المترتبة على فوضى الوقت:

---

[128] - انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان 5/412 ووعنه نقل الشيخ جاسم المطوع في الوقت عمار أو دمار 1/80، 81.

وأن يكون المسلم بصيرا بواقع الأعداء، وأنهم لا يضيعون لحظة بغير عمل، وأن إهدار وقته أو عدم استغلاله الاستغلال الصحيح يعني تمكن هؤلاء الأعداء من رقاب الأمة، فضلا عن غضب الله وسخطه في الدنيا والآخرة على النحو الذي قدمنا.

15 - الحرص على لزوم الجماعة، ونبذ العزلة أو التفرد:

وأن يظل المسلم ملازما الجماعة نابذا وراء ظهره العزلة أو التفرد، فإن الجماعة إن كانت مدركة لمهمتها، بصيرة بأمرها، نهضت بواجبها نحو هذا المسلم، فتنظم له وقته، وتملؤه بالنافع المفيد، بل وتتابعه وتحاسبه على التفريط أو التضييع، مقتفية في ذلك هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم.

إذ كان من هديه صلى الله عليه وسلم أن يقوم من الليل ثلثه، ثم ينام سدسه، ثم يصلي الصبح، ويضل يذكر ربه حتى تطلع الشمس وترتفع قدر رمح، فيصلي الضحى، ويتناول طعامه، وينصرف إلى واجباته نحو المسلمين، ومنهم أهله وأحفاده، ثم يصلي الظهر، وينام القيلولة، ويصلي العصر ويظل في حاجة المسلمين إلى العشاء، وفي هذه الأثناء يتناول عشاءه إن كانت به حاجة إلى هذا العشاء، ثم يصلي العشاء، وينام مبكرا، أو يسمر بعض الوقت في مصالح المسلمين إن قصر النهار عن تغطية هذه المصالح، ثم ينام، ولم يكن ينسى حق بدنه من الرياضة كالمشي، أو العدو، أو المصارعة، أو ركوب الخيل أو الرمي، فتحاول الجماعة تطبيق هذا الهدي مع كل مسلم، وتتولى متابعته ومحاسبته، فتحميه بذلك من التفريط والتضييع.

16 - التأكيد على الموعد بالنسبة للزائرين مع لباقه التخلص من الفضوليين أو شغلهم بالنافع المفيد :

ولا بد من أن يعود المسلم الزائرين على ألا تتم زيارة بغير موعد حفاظا على الوقت، وتوفيرا للجهد، وأن يكون لبقا في التخلص من

الفضوليين، كأن يصنع معهم ما كان يصنعه بعض السلف إذ كان يأمر جاريته أن تدور دائرة، وأن تضع أصبعها في وسط هذه الدائرة، وتقول: سيدي ليس هنا، أي ليس في داخل الدائرة، وهي صادقة، أو ما يصنعه أحد العلماء، الدعاة المعاصرين بأن يضع عمامته وجبته على مشجب خلف الباب، فإن جاء فضولي ورمقه من ثقب بالباب، لبس عمامته، وجبته إيهاما له بأنه خارج لواجب أو لمهمة، وفعلا يعتذر له، ويخرج قليلا، ويعود، فإن أبى هذا الفضولي إلا الدخول عمل على شغله بالنافع المفيد، وعلى نحو ما كان يصنع ابن الجوزي، إذ كان يقصر الكلام معهم استعجالا للفراق، أو يعد أعمالا تعنيه، ولا يمنع إنجازها من المحادثة والكلام مثل تقطيع الأوراق التي يكتب فيها وبري الأقلام، وحزم الدفاتر ونحوه، ودونك تجربته في ذلك بنصهما، إذ يقول:

" لقد رأيت خلقا كثيرا يجرون معي فيما قد اعتاده الناس من كثرة الزيارة ويسمون ذلك التردد خدمة، ويطلبون الجلوس، ويجرون فيه أحاديث الناس، وما لا يعني، ويتخلله غيبة، وهذا شيء يفعله في زماننا كثيرا من الناس، وربما طلبه المزور، وتشوق إليه، واستوحش من الوحدة، خصوصا في أيام التهاني، والأعياد، فتراهم يمشي بعضهم إلى بعض، ولا يقتصرون على الهناء والسلام، بل يمزجون ذلك بما ذكرته من تضييع الزمان، فلما رأيت الزمان أشرف شيء، والواجب انتهازه بفعل الخير، كرهت ذلك، وبقيت معهم بين أمرين: إن أنكرت عليهم وقعت وحشة لموضع قطع المألوف، وإن تقبلته منهم ضاع الزمان، فصرت أدافع اللقاء جهدي، فإذا غلبت قصرت في الكلام لأتعجل الفراق.

ثم أعددت أعمالا لا تمنع من المحادثة، لأوقات لقائهم، لئلا يمضي الزمان فارغاً، فجعلت من المستعد للقائهم قطع الكاغد - أي الورق - وبري الأقلام، وحزم الدفاتر، فإن هذه الأشياء لابد منها، ولا تحتاج إلى فكر وحضور قلب، فأرصدتها لأوقات زيارتهم، لئلا يضيع شيء من وقتي " . ([129])

[129] - انظر: سوانح وتأملات في قيمة الزمن ص 366، 37 نقلا عن صيد الخاطر.

الآفة التاسعة عشرة
التسويف

والآفة التاسعة عشرة التي تصيب نفراً من العاملين، بل لا يكاد يسلم منها إلا أصحاب الهمم العالية، والإرادات القوية والعزائم الصادقة، إنما هي: "التسويف".
وحتى يتخلص منها من أصيبوا بها، ويتقيها، ويتجنبها من سلمهم الله - عز وجل - منها، فإننا سنعرض لها بإذن الله من الجوانب التالية:

أولا: تعريف التسويف:

لغة
التسويف لغة يطلق على معان عدة، نذكر منها:
أ - التأخير والمماطلة، يقال: سوف يسوف تسويفا أخر، وماطل، يؤخر، ويماطل، تأخيراً، ومماطلة، وسوف حرف يدخل على الفعل المضارع، فيخصصه للاستقبال ودلالته التأخير، يقال: سوف أسافر.
ب - والتهويل، يقال: سوَّف الأمر تسويفاً معنى هوله وضخم من شأنه، ومنه قوله تعالى: {لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون} (الأنعام: 67)، {ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون} (الحجر: 3).
ج - والوعد، يقال: سوف بالحسنة تسويفاً يعني وعد بها مستقبلاً ومنه قوله تعالى: {ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما} (النساء: 74)، {وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما} (النساء: 146).
د - والوعيد، يقال: سوف بالسيئة تسويفا، يعني توعد بها مستقبلا، ومنه قوله تعالى: {قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم

يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا} (الكهف: 87)، {فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا} (مريم: 59) . ([130])
وعندي أنه لا تعارض بين هذه المعاني جميعاً، إذ هي وعدا، أو وعيدا أو تهويلا إنما ترد إلى معنى التأخير أو التأجيل والمماطلة.

اصطلاحا:
أما معنى التسويف اصطلاحاً، فهو المماطلة أو التأجيل على سبيل التهويل، والتضخيم لتنفيذ المطلوب وعدا كان أو وعيدا.

ثانيا: وضع التسويف في ميزان الإسلام مع بعض ما يدل عليه من سمات ومظاهر:
والتسويف بهذا المعنى ليس مذموما كله وليس محمودا كله، بل منه ما هو مذموم، ومنه ما هو محمود.
فأما المذموم : فهو التأجيل أو التأخير لتنفيذ المطلوب بغير مبرر أو مقتضى، وهو الذي نبه إليه الحق - تبارك وتعالى - بقوله: {وأنفقوا من ما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدّق وأكن من الصالحين} (المنافقون: 10)، {حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلي أعمل صالحا فيما تركت} (المؤمنون: 99)، {كلا إذا دكت الأرض دكا دكا وجاء ربك والملك صفا صفّاً وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى يقول يا ليتني قدمت لحياتي} (الفجر: 21-24)، {اتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون أن تقول نفس يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين} (الزمر: 55-58). كما نبه إليه النبي صلى الله

[130] - انظر: الصحاح في اللغة والعلوم ص 516، والمعجم الوجيز ص 329، وبصائر ذوي التمييز 3/378.

عليه وسلم بقوله: "بادروا بالأعمال الصالحة سبعا: هل تنتظرون إلا فقراً منسيا، أو غنى مطغيا، أو مرضا مفسدا، أو هرما مفندا، أو موتا مجهزا، أو الدجال فشر غائب ينتظر، أو الساعة فالساعة أدهى وأمر" ، ([131]) "اغتنم خمسا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك" . ([132])
وأما المحمود : فهو التهويل أو الوعد والوعيد، دفعا لفعل خير، أو ترك شر، أو ترقبا وانتظاراً للحظة مناسبة، وفرصة مواتية، ويدلنا على حسن هذا النوع من التسويف وروده في كلام الحق - تبارك وتعالى - في كتابه الكريم، إذ يقول سبحانه : {ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما فسوف نصليه نارا}(النساء: 30)، {إن الذين كفروا بآياتنا سوف نُصليهم نارا} (النساء: 56)، {وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما} (النساء)، {فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه} (المائدة: 54)، {إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون} (الأعراف)، {كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون} (التكاثر: 3-4) كما يدلنا على حسن هذا النوع من التسويف، وروده على لسان بعض الأنبياء كما حكى القرآن الكريم:
فقد طلب أولاد يعقوب من أبيهم أن يعفو عنهم وأن يستغفر لهم ربهم، بعد أن أدركوا خطأهم الذي وقعوا فيه بشأن يوسف عليه السلام قائلين: {يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين} (يوسف:97)، فرد عليهم قائلا: {سوف أستغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم} (يوسف: 98).
ونصح نوح قومه، فلما أعرضوا وكذبوا، توعدهم قائـلا: {فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه} (هود: 39)، ومثل ذلك صنع شعيب عليه السلام، فقال: {سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب} (هود: 93).

---

[131] - الحديث سبق تخريجه.
[132] - الحديث سبق تخريجه.

وأما السمات أو المظاهر الدالة على التسويف فكثيرة نذكر منها:

1 - البقاء على المعصية مع الوعد بالتوبة بأن يقول العاصي: سوف أتوب، أو سأتوب، أو غدا أتوب، وهكذا.
2 - تأجيل عمل اليوم إلى الغد بغير مبرر، ولا مقتضى، بأن يقول المسلم: غدا أفعل كذا، أو أنفذ كذا مما يلزم أن يكون فعله أو تنفيذه توا، وحالا، ولا يفعل، ولا ينفذ. ومثاله من الواقع أن يكلف محاضر أو مربّ بالتحضير لموضوع ما قبله بوقت كاف، ويظل يؤخره ويؤخره حتى يدخل عليه الوقت، وما صنع شيئا، أو صنع شيئا ولكنه لا يذكر... وهكذا.

ثالثا: أسباب التسويف:

والأسباب أو البواعث التي توقع في التسويف كثيرة نذكر منها:

1 - الأسرة التي تبنى حياتها على التسويف أو تدليل الأولاد:

إذ قد ينشأ المسلم في أسرة بنت حياتها على التسويف، فالأب، والأم، والأجداد، والإخوة الكبار غارقون من مفرق رؤوسهم إلى أخمص أقدامهم في الأخطاء، ويعدون بالتغيير ولا تغيير، ولهم أماني طويلة، وعريضة، ولا تنفذ ولا تطبق، وقد تبغي الأسرة حياتها على تدليل الأولاد القائم على الحنو والشفقة المجاوزين للحد، فيندفع الابن إلى أداء المعروف محاكاة للكبار، فتمنعه الأسرة من أداء هذا المعروف بحجة صغره وعدم إطاقته، وتعده بإفساح المجال له في المستقبل، ويتكرر ذلك في كل مرة، حتى يرث هذا الابن خلق التسويف.

ولعلنا في ضوء هذا السبب نفهم السر في تأكيده صلى الله عليه وسلم على ضرورة الوفاء للأولاد إذا تم وعدهم بشيء، وإلا كان ذلك تعويدا للأولاد على الكذب، نظرا لأنه تسويف والتسويف أوسع أبواب الكذب، إذ يقول عبد الله بن عامر: دعتني أمي يوما، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قاعد في بيتنا، فقالت: ها تعال أعطيك، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: "وما أردت أن تعطيه؟"، قالت: أعطيه تمرا، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أما إنك لو لم تعطيه شيئا، كتبت عليك كذبة " . ([133])

كما نفهم في ضوء هذا السبب أيضا حزم الأنصار مع أولادهم دفعاً لهم إلى المبادرة بفعل المعروف، وقطع الطريق على التسويف وخصوصا في تعويدهم على الصوم منذ نعومة أظفارهم، إذ تقول الربيع بنت معوذ: أرسل النبي صلى الله عليه وسلم غداة عاشوراء إلى قرى الأنصار: "من أصبح مفطرا فليتم بقية يومه، ومن أصبح صائما فليصم"، قالت: فكنا نصومه بعد، ونصوم صبياننا، ونجعل لهم اللعبة من العهن ، ([134]) فإذا بكى أحدهم على الطعام أعطيناه ذاك حتى يكون عند الإفطار ، ([135]) وفي رواية: فإذا سألونا الطعام أعطيناهم اللعبة تلهيهم حتى يتموا صومهم . ([136])

وعن رزينة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يأمر مرضعاته في عاشوراء، ورضعاء فاطمة، فيتفل في أفواههم ويأمر أمهاتهم ألا يرضعن إلى الليل . ([137])

---

[133] - الحديث أخرجه أبو داود في السنن: كتاب االأدب: باب في التشديد في الكذب 4/298 رقم (4991) قال: حدثنا قتيبة، حدثنا الليث عن ابن عجلان، أن رجلا من موالي عبد الله ابن عامر بن ربيعة العدوي حدثه، عن عبد الله بن عامر، وساق الحديث، وأحمد في المسند 3/447 بنفس الإسناد، ومولى عبد الله مجهول.

[134] - العهن هنا : هو الصوف الملون، انظر : اللنهاية في غريب الحديث والأثر 3/142.

[135] - الحديث أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب االصوم: باب صوم الصبيان 3/48، ومسلم في الصحيح: كتاب الصيام: باب من أكل في عاشوراء فليكف بقية يومه 2/798، 799 رقم (1136) كلاهما من حديث الربيع بنت معوذ رضي الله عنها مرفوعاً به وبنحوه.

[136] - هذه الرواية أخرجها مسلم في الصحيح: كتااب الصيام: باب من أكل في عاشوراء فليكف بقية يومه 2/997 رقم (1136) من حديث خالد بن ذكوان عن الربيع بنت معوذ بهذا اللفظ.

[137] - الحديث أورده الحافظ ابن حجر في فتح البباري شرح صحيح البخاري 4/201، وعزاه إلى ابن خزيمة في صحيحه، قائلاً "وأخرجه ابن خزيمة في صحيحه، وتوقف في صحته". ثم عقب عليه بقوله: "إسناده لا

2 - صحبة الكسالى والمسوفين:

وقد تكون صحبة الكسالى، والمسوفين السبب في التسويف، ولا سيما إذا كانت هذه الصحبة قبل إيجاد الحصانة التي تحول دون انتقال عدوى الكسل والتسويف.

ولعل هذا هو السر في تأكيد الإسلام على الصحبة الطيبة، ونبذ ما عداها، إذ جاء في الحديث قوله صلى الله عليه وسلم: "لا تصاحب إلا مؤمنا، ولا يأكل طعامك إلا تقي" . ([138])

3 - ضعف ا لإرادة أو الكسل والتراخي مع النفس:

وقد يكون ضعف ا لإرادة، وفتور العزيمة، ونزول الهمة، أو الكسل والتراخي مع النفس سببا من الأسباب التي تؤدي إلى التسويف، فمثلا بينما الواجب ينادي المسلم ويلح عليه إذ يدعوه ضعف الإرادة وفتور العزيمة، ونزول الهمة، أو الكسل والتراخي مع النفس إلى القعود عن أداء هذا الواجب بحجة أن في الغد فسحة أو فرصة.

ولعلنا في ضوء هذا السبب نفهم استعاذته صلى الله عليه وسلم الدائمة من العجز والكسل، إذ كان كثيراً ما يدعو في الصباح والمساء بهذا الدعاء: "اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن، والهرم..." ، ([139]) وفي رواية ثانية: "اللهم إني أعوذ

بأس به".

[138] - الحديث أخرجه أبو داود في السنن: كتاب االأدب: باب من يؤمر أن يجالس 4/259، رقم (4832)، والترمذي في السنن: كتاب الزهد: باب ما جاء في صحبة المؤمن 4/519 رقم (2395) كلاهما من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعا بهذا اللفظ، وعقب الترمذي عليه بقوله: "هذا حديث حسن إنما نعرفه من هذا الوجه".

[139] - الحديث أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب االجهاد: باب ما يتعوذ من الجبن 4/28، وكتاب التفسير: سورة النحل: باب قوله تعالى: {ومنكم من يرد إلى أرذل العمر} 6/153، وكتاب الدعوات: باب التعوذ من فتنة المحيا والممات 8/98، وباب التعوذ من أرذل العمر 8/99، من حديث أنس بن مالك مرفوعا بهذا اللفظ وبنحوه، وباب التعوذ من المأثم والمغرم 8/98 من حديث عائشة مرفوعا بنحوه، ومسلم في الصحيح: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار: باب التعوذ من العجز والكسل وغيره 4/2079، 2080 رقم (2706) من حديث أنس بن مالك مرفوعا، وباب التعوذ من شر ما عمل، ومن شر ما لم يعمل 4/2088 رقم (2722) من حديث زيد بن أرقم مرفوعا بنحوه، وأبو داود في السنن: كتاب الصلاة : باب في الاستعاذة 2/90 رقم (1540) من حديث أنس بن مالك مرفوعا به وبنحوه، والترمذي في السنن: كتاب الدعوات: باب منه 5/486 رقم (3484) من حديث عمرو بن أبي عمرو مولى المطلب عن أنس بن مالك مرفوعاً، وعقب عليه بقوله: "هذا حديث غريب من هذا الوجه، من حديث عمرو و بن أبي عمرو"، ورقم (3485) من حديث أنس أيضا،

بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والجبن والبخل، وضلع الدين، وغلبة الرجال " ، ([140]) وفي رواية ثالثة: " اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال " . ([141])

4 - أمن مكر الله :

وقد يكون أمن مكر الله سببا من الأسباب التي توقع في التسويف، إذ الإنسان مجبول على المبادرة والإسراع بأداء ما يطلب منه عندما يخاف، وعلى التواني والتفريط إذا أمن، ولقد أشار رب العزة إلى هذا السبب عند حديثه عن الكفار ومضيهم في كفرهم وباطلهم، فقال سبحانه: {أفأمن أهل القرى أن يأتيهم باسئنا بياتا وهم نائمون أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون} (الأعراف: 97-99)، {أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير} (الملك: 16-17)، {أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة

وعقب عليه بقوله: "هذا حديث حسن صحيح"، والنسائي في السنن الكبرى: كتاب الاستعاذة ة باب الاستعاذة من البخل، وباب الاستعاذة من الهم، وباب الاستعاذة من الحزن، وباب الاستعاذة من الكسل، وباب الاستعاذة من العجز 4/447 - 450 رقم (7881، 7884 - 7888، 7890، 7892، 7894) من حديث أنس ابن مالك مرفوعا به، وبنحوه، وابن ماجه في السنن: كتاب الدعاء: باب ما تعوذ منه رسول الله صلى الله عليه وسلم 2/1262 رقم (3838) من حديث عائشة فرعا بنحوه، وأحمد في المسند 3/113، 117، 122، 201، 205، 208، 214، 231، 235، 236، 264، من حديث أنس بن مالك مرفوعا به، وبنحوه 4/371 من حديث زيد بن أرقم مرفوعا بنحوه .

[140] - الحديث أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب االدعوات: باب التعوذ من غلبة الرجال 8/96، 97 من حديث أنس بن مالك مرفوعا بهذا اللفظ، وباب الاستعاذة من الجبن والكسل 8/98 من حديث عائشة مرفوعا، وأبو داود في: السنن: كتاب الصلاة: باب في الاستعاذة 2/90 رقم (1541)، وكتاب الحروف والقراءات: باب منه 4/31 رقم (3972) من حديث أنس بلفظه، وبنحوه، مطولا، ومختصرا، والترمذي في: السنن: كتاب الدعوات: باب منه 5/486 رقم (3484)، وقد تقدمت الإشارة إليه في الحديث الذي قبله، والنسائي في السنن الكبرى: كتاب الاستعاذة: باب الاستعاذة من الحزن 4/449 رقم (7890) من حديث أنس مرفوعا به، وأحمد في المسند 3/159، 220، 226، 240 من حديث أنس بن مالك مرفوعا.

[141] - الحديث أخرجه أبو داود في السنن: كتاب االصلاة: باب في الاستعاذة 2/93 رقم (1555) من حديث أبي سعيد الخدري، عن أبي أمامة - رجل من الأنصار- في قصة طويلة مشهورة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: "قل إذا أصبحت وإذا أمسيت: اللهم..." الحديث، إلا أن في إسناده غسان بن عوف وهو بصري وقد ضعف.

وهم لا يشعرون}، (يوسف: 107)، {أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصبا ثم لا تجدوا لكم وكيلا أم أمنتم أن يعيدكم في تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفا من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا} (الإسراء).

5 - طول الأمل مع نسيان الموت والدار الآخرة:

وقد يكون طول الأمل مع نسيان الموت والدار الآخرة من الأسباب التي تؤدي إلى التسويف.

يقول الإمام أبو حامد الغزالي في تصوير هذا السبب: "اعلم أن من له أخوان غائبان، وينتظر قدوم أحدهما في غد، وينتظر الآخر بعد شهر أو سنة، فلا يستعد للذي يقدم إلى شهر أو سنة، وإنما يستعد للذي ينتظر قدومه غدا، فالاستعداد نتيجة قرب الانتظار، فمن انتظر مجيء الموت بعد سنة، اشتغل بالمدة، ونسي ما وراء المدة، ثم يصبح كل يوم، وهو منتظر للسنة بكمالها، لا ينقص منها اليوم الذي مضى وذلك يمنعه من مبادرة العمل أبدا، فإنه أبدا يرى لنفسه متسعا تلك السنة، فيؤخر العمل" . ([142])

ويقول الحافظ ابن الجوزي في تصوير نفس السبب: "يجب على من لا يدري متى يبغته الموت أن يكون مستعدا، ولا يغتر بالشباب، والصحة، فإن أقل من يموت الأشياخ، وأكثر من يموت الشبان، ولهذا يندر من يكبر، وقد أنشدوا:

يعمر واحد، فيغر قوما وينسى من يموت من الشباب

ومن الاغترار طول الأمل، وما من آفة أعظم منه، فإنه لولا طول الأمل ما وقع إهمال أصلا، وإنما يقدم المعاصي، ويؤخر التوبة لطول الأمل، وتبادر الشهوات، وتنسى ا لإنابة لطول ا لأمل" . ([143])

---

[142] - انظر: إحياء علوم الدين للغزالي 4/391، وعنه نقل خلدون الأحدب في سوانح وتأملات في قيمة الزمن ص 46،47.

[143] - انظر: صيد الخاطر لابن الجوزي ص 178، 1779.

ولعل هذا السبب يفسر لنا تحذيره صلى الله عليه وسلم من طول الأمل، والركون إلى الدنيا، والغفلة عن الآخرة، فقد خط صلى الله عليه وسلم خطا مربعا، وخط خطا في الوسط خارجا منه، وخط خططا صغارا إلى هذا الذي في الوسط من جانبه الذي في الوسط، وقال: "هذا الإنسان، وهذا أجله محيط به، أو قد أحاط به، وهذا الذي هو خارج أمله، وهذه الخطط الصغار الأعراض ([144]) فإن أخطأه هذا نهشه هذا، وإن أخطأه هذا نهشه هذا " . ([145])

6 - الاستهانة بالأمر مع اعتماد المرء على بعض ما وهبه الله من حول وقوة:

وقد تكون الاستهانة بالأمر مع اعتماد المرء على بعض ما وهبه الله من حول وقوة هي السبب في التسويف.

ولعل خير ما يشرح هذا السبب ويجليه، قصة كعب بن مالك رضي الله عنه وتخلفه عن غزوة تبوك، إذ يحكي عن نفسه، فيقول: "... كان من خبري أني لم أكن قط أقوى، ولا أيسر حين تخلفت منه في تلك الغزاة، والله ما اجتمعت عندي قبله راحلتان قط، حتى جمعتهما في تلك الغزوة، ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد غزوة إلا ورى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة، غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في حر شديد، واستقبل سفرا بعيدا، ومغازا، وعدوا كثيرا، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم، فأخبرهم بوجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير، ولا

---

[144] - الأعراض: هي الآفات العارضة للإنسان، بحيث إذا سلم من آفة لم يسلم من الأخرى، وإن سلم من الجميع لم يسلم من مباغتة الأجل أو الموت، انظر: فح الباري لابن حجر 11/238.

[145] - الحديث أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب االرقاق: باب الأمل وطوله 8/110، 111، والترمذي في السنن: كتاب القيامة: باب منه 4/548 رقم (2454)، وابن ماجه في السنن: كتاب الزهد: باب الأمل والأجل 2/1414 رقم (4231)، والدارمي في السنن: كتاب الرقاق: باب في الأمل والأجل 2/304، وأحمد في المسند 1/385 كلهم من حديث عبد الله بن مسعود مرفوعا، واللفظ للبخاري، وعقب الترمذي على روايته قائلا: "هذا حديث صحيح".

يجمعهم كتاب حافظ - يريد الديوان - قال كعب: فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن سيخفي له، ما لم ينزل فيه وحي الله، وغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الغزوة حين طابت الثمار، والظلال، وتجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه، فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم، فأرجع ولم أقض شيئا، فأقول في نفسي أنا قادر عليه، فلم يزل يتمادى بي، حتى اشتد بالناس الجد، فأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه، ولم أقض من جهازي شيئا، فقلت: أتجهز بعده بيوم، أو يومين، ثم ألحقهم فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز، فرجعت ولم أقض شيئا ثم غدوت، ثم رجعت، ولم أقض شيئا، فلم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو وهممت أن أرتحل فأدركهم - وليتني فعلت - فلم يقدر لي ذلك " . ([146])

7 - التعويل على عفو الله ومغفرته مع نسيان شدة أخذه وعقابه :

وقد يكون التعويل على عفو الله، ومغفرته، مع نسيان شدة أخذه سبحانه، وعقابه، هو السبب في الوقوع في آفة التسويف، وقد سبق الحافظ ابن الجوزي إلى هذا السبب، فقال - بعد أن ذكر سببين للتسويف:

(... والثالث: رجاء الرحمة، فيرى العاصي يقول: رب رحيم وينسى أنه شديد العقاب، ولو علم أن رحمته ليست رقة، إذ لو كانت كذلك لما ذبح عصفور، ولا آلم طفلا، وعقابه غير مأمون، فإنه شرع قطع اليد الشريفة بسرقة خمسة قراريط) . ([147])

8 - عدم المتابعة والمحاسبة من الآخرين:

---

[146] - انظر: صيد الخاطر لابن الجوزي ص 304.
[147] - انظر: صيد الخاطر لابن الجوزي ص 304.

وقد يكون السبب في التسويف إنما هو عدم المتابعة والمحاسبة الآخرين، ذلك أن المسلمين بعضهم أولياء بعض، ومقتضى هذه الولاية ينصح بعضهم بعضاً، وأن يتابع بعضهم بعضا بل أن يحاسب بعضهم بعضا وهذا هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المشار إليهما في قوله سبحانه: {والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر} (التوبة: 71) وعندما تغيب هذه الولاية من حياة المسلمين، فلا تكون متابعة، ولا محاسبة، يتجرأ الناس على الإهمال ويقع التسويف .

9 - الانغماس في المعاصي والسيئات:

وقد يكون الانغماس في المعاصي والسيئات إنما هو السبب في التسويف، ذلك أن كثرة المعاصي والسيئات، تقسي القلب، وتكون من شأن هذه المعاصي، وتلك السيئات، الأمر الذي يمكن أن يؤدي إلى الإهمال، والوقوع في التسويف.
ولقد ألمح إلى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما قال: "... وإن الفاجر يرى ذنوبه، كذباب مر على أنفه فقال به هكذا" . ([148])

10 - عدم تقدير العواقب والآثار المترتبة على التسويف:

وأخيرا، قد يكون عدم تقدير العواقب والآثار المترتبة على التسويف إنما هو السبب في الوقوع في هذا التسويف، ذلك أن الإنسان جبول على تأخير الشيء، والتواني فيه، إذا لم يقدر عواقبه الوخيمة، وآثاره السيئة، ولعل ذلك من بين الأسباب التي أدت إلى أن تكون أكثر أحكام ديننا الحنيف معللة مقرونة بحكمة التشريع.

رابعا: آثار التسويف:

[148] - الخبر سبق تخريجه في الجزء الأول، آفة: "التفريط في عمل اليوم والليلة".

وللتسويف آثار ضارة، وعواقب وخيمة، سواء على العاملين، أو على العمل الإسلامي، ودونك طرفا من هذه الآثار، وتلك العواقب:

أ - على العاملين:

أما آثار التسويف على العاملين فكثيرة، نذكر منها:

1 - الحسرة والندم في وقت لا تنفع فيه الحسرة والندم:

ذلك أن المسوف يقضي دهره متعديا على حدود الله، مفرطاً في جنبه حتى إذا جاءه الموت، وكشف عنه الغطاء، وعاين الأمور على حقيقتهما يتحسر ويندم، ويتمنى التأخير، أو الرجعة إلى الدنيا ليتدارك أمره، وأنى له ذلك، وقد ضاعت منه الفرصة وفات الأوان، يقول تعالى: {حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلي أعمل صالحا فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون} (المؤمنون: 99-100)، {وأنفقوا من ما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فاصدق وأكن من الصالحين ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها والله خبير بما تعلمون} (المنافقون: 10-11)، {ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين} (الأنعام: 27).

2 - الحرمان من الأجر والثواب:

وهو كذلك بتعديه على حدود الله، وتفريطه في جنبه سبحانه حرم نفسه من كثير من الأجر والثواب، وما قيمة الإنسان غدا إذا لقي ربه بغير أجر ولا مثوبة، إن قيمته إذن أن يكون من

أصحاب الجحيم، وتلك هي الخسارة الحقيقية، وصدق الله الذي يقول: {إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل} (الزمر: 15)، {إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا إن الظالمين في عذاب مقيم} (الشورى: 45).

3 - تراكم الذنوب، وصعوبة التوبة :

والتسويف يؤدي إلى تراكم الذنوب، وإذا تراكمت الذنوب ثقلت على المرء، وحار حيرة شديدة، بأيها يبدأ، وبأيها ينتهي، الأمر الذي يؤول به إلى استثقال التوبة وصعوبتها وواقع العصاة والمذنبين في كل عصر ومصر خير شاهد على ذلك .

4 - تراكم ا لأعمال، وصعوبة الأداء :

وقد يؤدي التسويف إلى تراكم الأعمال، وتزاحم الأعباء، فلا يدري المرء أيها يقدم، وأيها يؤخر، ومن ثم يتشتت فكره ويضيع سعيه، ويصبح أمره فرطا، ولا يمكن أن ينجز واجباً من الواجبات .

5 - ضياع الهيبة، وعدم القدرة على التأثير في الناس:

وهو بتعديه على حدود الله، وتفريطه في جنبه سبحانه وعدم قيامه بواجبه نحو ربه، ونحو نفسه، وذويه، ونحو أمته، تضيع هيبته من صدور الناس، ولا يتمكن من إتقان أي عمل من الأعمال، الأمر الذي يفقده القدرة على التأثير في الناس، وإذا ضاعت هيبة المسلم من صدور الناس فقد القدرة على التأثير فيهم، واستوى معهم، وكيف يستوي معهم، والمفروض أنه إمامهم، ورائدهم كما قال سبحانه: {وكذلك جعلناكم أمة وسطا

لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيـدا} (البقرة :143)، {ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس} (الحج : 78).

ب - على العمل الإسلامي :

وأما آثار التسويف على العمل الإسلامي فكثيرة أيضا، ونذكر منها :

1 - تطويق العمل الإسلامي :

الأمر الذي يؤدي إلى طول الطريق وكثرة التكاليف، ذلك أن التسويف ينتهي بأصحابه إلى ضياع الهيبة، وفقدان عنصر التأثير في الناس كما قدمنا، الأمر الذي يطمع العدو، ويقلل من الأنصار، وبذلك يسهل تطويق هذا العمل، وتكثر التكاليف وتطول الطريق .

2 - الحرمان من العون والمدد الإلهي :

وذلك أن من سنته سبحانه في خلقه أنه لا يمنحهم عونه ولا مدده وهم مسوفون، متعدون على حدود الله، مفرطون في جنبه سبحانه، وإذا حرم العمل الإسلامي عونه ومدده سبحانه، فعلى هذا العمل السلام، ولن يصل إلى مبتغاه، وإن تعلق بأسباب السماء .

خامسا : علاج التسويف:

وما دمنا قد وقفنا على ماهية ومظاهر وأسباب وآثار التسويف، فإنه يسهل علينا الآن أن نسعى نحو العلاج، والوقاية، بل أن نصف هذا العلاج وهذه الوقاية، وذلك على النحو التالي:

1 - أخذ النفس بالحزم، وقوة العزيمة، ولأن تتعب النفس اليوم لتستريح غدا، خير لها من أن تستريح اليوم، وتتعب غدا، وأيضا لأن مكر الله غير مأمون، والموت يأتي بغتة، وإذا لم يأت بغتة فإنه يسبقه المرض، ثم يكون الموت، وهو سبحانه يقول: {وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون أن تقول نفر يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكـافرين} (الزمر: 54-59).

2 - تذكير النفس دوماً بأن التسويف عجز وضعف، وخور، وليس من سمات المسلم العجز، والضعف، والخور، بل إن الإنسان إذا كان معتزا بإنسانيته فإنه يأبى عليها هذه الأوصاف، وإن مثل هذا التذكير إن كان صادقا، وانفعلت به النفس، فإنه سيقودها حتما إلى التشمير، والمسارعة بترك المحظور والمكروه، وفعل المأمور والمحبوب، ورضي الله عن سيدنا عمر حين قال : " من القوة ألا تؤخر عمل اليوم إلى الغد " .[149]

3 - دوام الدعاء والضراعة إلى الله - عز وجل - بالتحرر من العجز والكسل على نحو ما قدمنا في دعاء وضراعة النبي صلى الله عليه وسلم في الصباح والمساء، فإن الدعاء هو العبادة، وهو سبحانه يقول: {ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين} (غافر: 60)، {وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون} (البقرة: 186).

4 - أن تأخذ البيوت نفسها بالحزم والعزم حتى لا تفسد الناشئة من الأولاد، وعلى الأولاد من جانب آخر أن يشبوا على تعلم

---

[149] - الخبر سبق تخريجه في الجزء الأول، آفة: "التفريط ني عمل اليوم والليلة".

وتعاليم الكتاب والسنة، وأن يزنوا كل تصرف بهما، فما وافقهما فهو الحق، وعليهم اتباعه، وما خالفهما فهو الباطل، وعليهم اجتنابه.
5 - الانسلاخ من صحبة الكسالى، والمسوفين، والارتماء بين يدي ذوي الحزم، والعزم، والقوة، فإن ذلك من شأنه أن يحمل على مجاهدة النفس وأخذها بالحزم، والعزم، والقوة.
6 - دوام معايشة الكتاب والسنة، فإن هذه المعايشة تكون سببا في معرفة الله حق المعرفة، وإذا عرف المسلم ربه حق المعرفة قضى عمره، وكأنما يمشي على الجمر، بحيث لا تمر عليه لحظة إلا وهو فيها مؤدي ما عليه، مستعد للقاء الله -عز وجل.
7 - الاحتراز من المعاصي والسيئات بألا يقع فيها المسلم أصلا، وإن وقع بادر بالتوبة، فإن أكثر التسويف مبعثه الانغماس في المعاصي والسيئات على النحو الذي ذكرنا في الأسباب، بل ويشفع ذلك بمزيد من الطاعات: فرائض، ونوافل حتى تلين الجلود، والجوارح، وترق القلوب بذكر الله، فتنشط النفس من عقالها، وتتخلص من التسويف.
8 - تذكر الموت والدار الآخرة على الدوام، فان مثل هذا التذكر مما يقلل عمر الدنيا في نظر المسلم، ويهون من شأن زخرفها، وزهرتها، وزينتها، ويحمله على المبادرة بالتوبة، وأداء الحقوق لذويها، وإن ثقل الحمل، وعظمت التكاليف .
9 - معايشة السلف في نظرتهم إلى التسويف، ونفورهم منه نفورا شديدا قولا، وفعلا، فكرا، وسلوكا، وسبق قول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب : (من القوة ألا تؤخر عمل اليوم إلى الغد) . ([150])
وهذا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وقد فرغ من دفن سليمان بن عبد الملك الخليفة الذي كان قبله، وانتهى من الخطبة التي افتتح بها حكمه بعد أن بايعه الناس، ينزل عن

[150] - انظر: صور من حياة التابعين للدكتور عبدد الرحمن الباشا 1/138 - 144 بتصرف.

المنبر ويتجه إلى بيته، ويأوي إلى حجرته يبتغي أن يصيب ساعة من الراحة بعد هذا الجهد، وذلك العناء اللذين كان فيهما منذ وفاة الخليفة سليمان بن عبد الملك.
وما يكاد يسلم جنبه إلى مضجعه حتى يقبل عليه ولده عبد الملك - وكان يومئذ يتجه نحو السابعة عشرة من عمره - ويقول له: ماذا تريد أن تصنع يا أمير المؤمنين؟ فقال: يا بني، أريد أن أغفو قليلا، فلم تبق في جسدي طاقة، فقال: أتغفو قبل أن ترد المظالم إلى أهلها يا أمير المؤمنين؟ فقال: أي بني، إني قد سهرت البارحة في عمك سليمان، وإني إذا حان الظهر صليت في الناس، ورددت المظالم إلى أهلها إن شاء الله، فقال: ومن لك يا أمير المؤمنين بان تعيش إلى الظهر؟ فألهبت هذه الكلمة عزيمة عمر، وأطارت النوم من عينيه وبعثت القوة والعزم في جسده المتعب، وقال: ادن مني أي بني، فدنا منه، فضمه إليه، وقبل ما بين عينيه، وقال: الحمد لله الذي أخرج من صلبي، من يعينني على ديني، ثم قام، وأمر أن ينادي في الناس: ألا من كانت له مظلمة فليرفعها . ([151])
وقال لقمان لابنه: يا بني، لا تؤخر التوبة، فإن الموت يأتي بغتة، ومن ترك المبادرة إلى التوبة بالتسويف، كان بين خطرين عظيمين، أحدهما : أن تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصي، حتى يصير رينا وطبعا فلا يقبل المحو، الثاني: أن يعاجله المرض أو الموت فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو . ([152])
وعن أبي إسحاق قال : قيل لرجل من عبد القيس في مرضه: أوصنا قال: أنذرتكم سوف . ([153])
وأوصى ثمامة بن بجاد السلمي قومه، فقال: أي قوم، أنذرتكم سوف أعمل، سوف أصلي، سوف أصوم . ([154])

---

[151] - انظر: إحياء علوم الدين للغزالي 4/12.
[152] - انظر: إحياء علوم الدين للغزالي 4/12.
[153] - الأثر أخرجه ابن المبارك في الزهد: باب التحضيض على طاعة الله - عز وجل - ص 5 بهذا اللفظ.
[154] - الأثر أخرجه ابن المبارك في الزهد ص 5 ببهذا اللفظ .

ويقول الحسن البصري رضي الله عنه إياك والتسويف، فانك بيومك، ولست بغدك، قال: فإن يكن غد لك، فكس فيه - أي اعمل عملا تكون به كيسا- كما كست في اليوم، وإلا يكن الغد لك، لم تندم على ما فرطت في اليوم . ([155])
وقال المنذر: سمعت مالك بن دينار يقول لنفسه: ويحك، بادري قبل أن يأتيك، ويحك بادري قبل أن يأتيك الأمر. حتى كرر ذلك ستين مرة أسمعه، ولا يراني . ([156])
واجتهد سيدنا أبو موسى الأشعري رضي الله عنه قبل موته، اجتهادا شديدا، فقيل له: لو أمسكت، أو رفقت بنفسك بعض الرفق، فقال: إن الخيل إذا أرسلت فقاربت رأس مجراها، أخرجت جميع ما عندها، والذي بقي من أجلي أقل من ذلك، قال: فلم يزل حتى مات . ([157])
10 - أن تقوم الأمة كلها على المستوى القيادي، وغير القيادي، في متابعة ومحاسبة المسوفين، فإن هذه المتابعة، وتلك المحاسبة، تقطع الطريق على النفس، وتحول بينها وبين التسويف، وهذا من حق الأمة على بعضها البعض وصدق الله العظيم: {والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله}(التوبة:71).
11 - عدم الاستهانة بأي أمر من الأمور، وإن كان هذا الأمر بسيطا، واليقين بأن الأمر كله لله، والفرصة التي في يدك الآن قد تضيع منك غدا .
12 - التذكير الدائب بالعواقب والآثار المترتبة على التسويف، فان هذا التذكير من شأنه أن يشحذ الهمم، والعزائم، وأن يقضي على التسويف عند من كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد.

---

[155] - انظر: إحياء علوم الدين للغزالي 4/392، وعنه نقل خلدون الأحدب في سوانح وتأملات ص 48.
[156] - انظر: إحياء علوم الدين للغزالي 4/392، وعنه نقل خلدون الأحدب في سوانح وتأملات ص 48.
[157] - انظر: إحياء علوم الدين للغزالي 4/392، وعنه نقل خلدون الأحدب في سوانح وتأملات ص 48.

الآفة العشرون
التشاؤم

والآفة العشرون التي أصابت، وتصيب نفرا من العاملين، بل ومن غير العاملين ولم يسلم منها إلا من حباه الله - عز وجل - إيمانا صادقا، ويقينا تاما، إنما هي: (التشاؤم).
وحتى يتخلص من هذه الآفة من ابتلي بها، ويتوقاها من سلمه الله - تبارك وتعالى -منها، فإننا سنعرض لها من الجوانب التالية:

أولا: تعريف التشاؤم:

لغة

يطلق التشاؤم في اللغة على معان عدة، وأهمها:
أ - التطير أو ما يقابل التيامن، يقال: تشاءم منه أي تطير، وتشاءم به أي عدّه شؤما لا يمن فيه ولا خير، وذلك أن العرب في الجاهلية كانوا إذا أرادوا أمرا من الأمور سفرا، أو زواجا، أو سيرا نفروا الطير، وزجروه، فإن مال ناحية اليمين تفاءلوا، ومضوا لتنفيذ ما يريدون، وإن مال ناحية الشمال تشاءموا، وقعدوا عن إتمام وبلوغ ما قصدوه، وإن لم تمل لا إلى هذه، ولا إلى تلك، أعادوا تنفير الطير وزجره، وسمي هذا كله تطيرا، كما سمي القعود عن أداء الواجب نتيجة ميل الطير ناحية الشمال تطيرا أي تشاؤما، وكانوا في أحايين أخرى يبنون أمور حياتهم على مجرد حركة الطير، أو الوحش، فإن كانوا سائرين في طريقهم لإمضاء أمر ما، ورأوا الخير أو الوحش فجأة، أو كان الطير أو الوحش واقفا، وحين رآهم ولى وأدبر، تطيروا، أي تشاءموا ورجعوا.
ب - توهم أو توقع الشر، يقال: تشاءم من الأمر أو من فلان أي توهم، وتوقع الشر من ناحيته، ومنه قيل لأهل النار: أصحاب

المشأمة، للعذاب أو الشر الذي ينزل بهم، بسبب كفرهم، وسوء أعمالهم في الحياة الدنيا، قال تعالى: {والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة عليهم نار مؤصدة} (البلد: 19-20).
ومنه ما يحكى عن الأعاجم أنهم كانوا يتشاءمون عند الخروج بالغداة برؤية الصبي، يذهب به إلى المعلم، ويتيمنون إذا خرجوا للحاجة ورأوا صبيا يرجع من عند المعلم إلى بيته، ويتشاءمون برؤية السقاء، وعلى ظهره قربة مملوءة مشدودة، ويتيمنون برؤية فارغ السقاء مفتوحة، ويتشاءمون بالحمال المثقل بالحمل، والدابة الموقرة، ويتيمنون بالحمال الذي وضع حمله، ويحكي، والدابة التي حطّ عنها حملها.
ج - إساءة الظن بكل شيء في الوجود خالقا أو مخلوقا، عاقلا أو غير عاقل . ([158])
وعندي أنه لا تعارض بين هذه المعاني اللغوية جميعا، إذ التطير أو توقع الشر، والمكروه، ما هو إلا أثر من آثار سوء الظن بكل شيء في الحياة .

اصطلاحا:

أما تعريف التشاؤم في المصطلح الشرعي والدعوي فيتلخص في:
التطير أو توهم حصول الشر والمكروه بصورة تؤدي إلى القعود عن أداء الواجب، أو على الأقل الكسل والتواني، والتراخي نتيجة إساءة الظن بكل شيء في هذا الوجود، أو في هذه الحياة.

ثانيا: صور أو مظاهر التشاؤم مع بيان وضعه في ميزان الإسلام:

---

[158] - انظر: المعجم الوسيط 1/488 بتصرف، والمنهاج في شعب الإيمان: للحليمي 2/20، وفتح الباري لابن حجر 10/212، 213.

وللتشاؤم بهذا المعنى الذي قدمنا صور كثيرة، ومظاهر عدة، تدل عليه وبها يعرف، ونذكر منها:
1 - عدم الاستجابة للدعوة التي تنادي بالمشاركة في العمل الجماعي من أجل التمكين لمنهج الله في الأرض من جديد، على أساس أن الإسلام عقيدة، وعبادة، وخلق، وتشريع، أو هو دين ودولة، يشمل الحياتين جميعا، الدنيا والآخرة، بدعوى أن عدونا يفوقنا عددا، وعدة، وهو الآن الممسك بخناقنا، والموجه للحياة، وأين نحن إذن من هذا العدو؟ لا مناص لنا إلا القعود، والاستسلام حتى الموت، أو أن يقضي الله أمرا كان مفعولا.
2 - المشاركة في العمل الجماعي القائم على تصور أنه لا دخل للإسلام في السياسة، نظرا لما يجره هذا التصور - وهو أن الإسلام دين ودولة - من محن، وشدائد، وابتلاءات شهد بها واقع الأمة المسلمة منذ سقوط الخلافة الإسلامية إلى اليوم.
3 - المشاركة في العمل الجماعي للإسلام، على أساس أن هذا الإسلام دين ودولة، ولكن بهمّة نازلة، وعزيمة ضعيفة، وإرادة فاترة، يأسا، وقنوطا من أننا مهما عملنا، فلا يمكن أبدا أن نلحق بعدونا، فضلا عن أن نسبقه أو أن نفوقه.
4 - التثبيط من همم وعزائم العاملين لدين الله بصدق وجدية بدعوى الإشفاق والرحمة بهذا الصنف من الناس، وأنه لا داعي أن يتعب هؤلاء أنفسهم، وأن يجروا عليها من المحن والشدائد ما لا يعلمه إلا الله، ولا سيما وقد صار الأمر بأيدي أعدائهم، وأولئك اليوم هم حكام العالم، وساسته في النظام العالمي الجديد، حسبهم أن يكونوا - هم، وأهلوهم، وأولادهم وذووهم - مسلمين في أنفسهم، ولا شأن لهم بالآخرين، إذ الحق - تبارك وتعالى - يقول: {يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم} (المائدة: 105).
5 - النظر لكل ما هو أجنبي من أشخاص، وأفكار، وإنتاج، بعين الإكبار، والإجلال، والاحترام، والتوقير، أما ما هو وطني من

أشخاص، وأفكار، وإنتاج، فينظر إليه بعين الاحتقار، والسخرية، والازدراء، والاستهزاء.
6 - اليأس من رحمة الله، وعفوه، بسبب كثرة المعاصي والسيئات وتصور أن الله شديد العقاب فقط، وأنه لن يغفر، ولن يعفو، ولن يتجاوز بحال من الأحوال.
7 - تصديق دعايات أعداء الله وأعداء الأمة الإسلامية القائمة على الدجل، وقلب الحقائق، والنيل من الإسلام، والمسلمين والرفع من شأن ا الكفر، والكافرين، بحيث يسلم ذلك في نهاية المطاف إلى القطيعة للمسلمين، والموالاة للكافرين.
8 - الخوف من بعض الحوادث اليومية العادية، والتي هي جزء من قضاء الله وقدره، ككسر بعض الأواني، أو انطفاء المصابيح، أو صراخ وبكاء بعض الأولاد بصورة مستمرة، أو وقوع مكروه عند ولوج بعض الأماكن المباركة كالمساجد مثلا، ثم القعود عن أداء بعض الواجبات بسبب ذلك.
9 - الخوف من لقاء المعروفين بالحسد، أو بالسحر والكهانة، وعدم اتباع الحكمة في دعوة هؤلاء، ومداواتهم كي يقلعوا عما هم فيه من شر، وباطل.
هذه هي أهم صور أو مظاهر التشاؤم.
أما عن وضع هذا التشاؤم في ميزان الإسلام، فيتلخص من خلال النظر في النصوص الشرعية:
أن التشاؤم أو التطير إن كان مجرد توهم أو توقع حصول الشر نتيجة حوادث معينة، أثبتت التجارب، والممارسة صحتها، أو صدقها، مع اعتقاد أن الأمر كله لله، وليس لهذه الحوادث أدنى أثر على النفس إلا بإذن الله، بل لم تصرفه هذه الحوادث عن المضي في طريقه وتنفيذ مراده، إن كان الأمر كذلك، فلا شيء فيه، لأن مثل هذا التوهم أو التوقع شيء فطري في النفس الإنسانية وما من إنسان إلا ويخاف الشر، وينقبض منه، ويفرح بالخير ويهش، ويبش له، وبهذا المعنى جاءت النصوص، إذ يقول صلى الله عليه وسلم: "ثلاثة لا يسلم منهن أحد، الطيرة،

والظن، والحسد، فإذا تطيرت فلا ترجع، و إذا حسدت فلا تبغ، وإذا ظننت فلا تحقق" ، ([159]) "إذا تطيرتم فامضوا، وعلى الله فتوكلوا " ، ([160]) "لن ينال الدرجات العلا من تكهن أو استقسم، أو رجع من سفر تطيرا" ، ([161]) "الطيرة شرك - وما منا إلا تطير-ولكن الله يذهبه بالتوكل" . ([162])

وقد علق الحافظ ابن حجر على الحديث الأخير بقوله: "وإنما جعل ذلك شركا لاعتقادهم أن ذلك يجلب نفعاً، أو يدفع ضراً، فكأنهم أشركوه مع الله تعالى، وقوله: "ولكن الله يذهبه بالتوكل "إشارة إلى أن من وقع له ذلك، فسلم الله، ولم يعبأ بالطيرة، أنه لا يؤاخذ بما عرض له من ذلك" . ([163])

أما إن كان توهم أو توقع الشر لحوادث معينة دافعا لصاحبه أن يقعد عن أداء دوره، والقيام بواجبه، اعتقادا منه أن لهذه الحوادث أثرا فيما يصيبه دون أن يرد الأمر كله لله، فذلك شرك، وهو حرام مذموم، يوجب لصاحبه عدم المغفرة، ومن ثم الخلود في النار إذ يقول تبارك وتعالى: {إن الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء} (النساء: 116).

وإذ يقول صلى الله عليه وسلم: "لا عدوى ولا طيرة، الشؤم في ثلاث، في المرأة، والدار، والدابة" ، ([164])

---

[159] - الحديث أورده الحافظ ابن حجر في فتح البباري 10/213، وعزاه إلى ابن عدي في الكامل، قائلا: "وأخرج ابن عدي بسند في عن أبي هريرة رفعه... الحديث).

[160] - الحديث أورده الحافظ ابن حجر في فتح البباري 10/213، وعزاه إلى ابن عدي في الكامل، قائلا: "وأخرج ابن عدي بسند في عن أبي هريرة رفعه... الحديث).

[161] - الحديث أورده الحافظ ابن حجر في فتح البباري 10/213، وعزاه إلى الطبراني عن أبي الدرداء، رفعه، وعقب عليه بقوله: "ورجاله ثقات، إلا أنني أظن أن فيه انقطاعا، وله شاهد عن عمران بن حصين، وأخرجه البزار في أثناء حديث بسند جيد".

[162] - انظر: فتح الباري 10/213.

[163] - انظر: فتح الباري 10/213.

[164] - الحديث أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب: باب الطيرة، وباب لا عدوى 7/174، 179، ومسلم في الصحيح: كتاب السلام: باب الطيرة والفأل، وما يكون فيه من الشؤم 4/1747 رقم (2225) كلاهما من حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعا به، وأبو داود في السنن: كتاب الطب: باب في : الطيرة 4/19 رقم (3921) من حديث سعد بن مالك مرفوعا، وأحمد في المسند 1/174، 180 من حديث سعد بن مالك مرفوعا، 2/153 من حديث ابن عمر مرفوعا.

"لا عدوى، ولا طيرة، ولا هامة، ولا صفر" ، ([165]) "لا طيرة، وخيرها الفأل"، قالوا: وما الفأل يا رسول الله؟ قال: "الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم" ، ([166]) "لا عدوى، ولا طيرة، ويعجبني الفأل الصالح : الكلمة الحسنة " ، ([167]) "العين حق، وأصدق الطيرة الفأل" . ([168])
وذكرت الطيرة عنده صلى الله عليه وسلم فقال: "خيرها الفأل، ولا ترد مسلما، فإذا رأى أحدكم ما يكره، فليقل: اللهم لا

---

[165] - الحديث أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب االطب: باب لا هامة 7/175، ومسلم في الصحيح: كتاب السلام: باب لا عدوى ولا طيرة ولا هامة، ولا صفر 4/1743 رقم (2220)، وأبو داود في السنن: كتاب الطب: باب في الطيرة 4/17 رقم (3911)، كلهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا، وابن ماجه في السنن: كتاب الطب: باب من كان يعجبه الفأل، ويكره الطيرة 2/1171 رقم (3539) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعا وقال عنه البوصيري في مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه 4/77، 78: "هذا إسناد صحيح، ورجاله ثقات، وأحمد في المسند 1/269، 328 من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعا، 2/222 من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه مرفوعا، ولكن بلفظ :لا عدوى، ولا طيرة، ولا هامة، ولا حسد، والعين حق"، 2/267، 327، 420، 434، 487 من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا به، وبنحوه.

[166] - الحديث أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب االطب: باب الفأل 7/175 من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعا بهذا اللفظ، ومسلم ني الصحيح: كتاب الطب: باب الطيرة والفال، وما يكون فيه من الشؤم 4/1746 رقم (2223، 2224)، من حديث أنس بن مالك، وأبي هريرة كليهما مرفوعا. وأبو داود في السنن: كتاب الطب: باب في الطيرة 4/18 رقم (3916) من حديث أنس بن مالك مرفوعا بلفظ :لا عدوى، ولا طيرة، ويعجبني الفأل الصالح، والفأل الصالح الكلمة الحسنة" وكان هذه الرواية بيان لما أجمل في رواية البخاري من قوله: "ويعجبني الفأل الصالح: الكلمة الحسنة"، والترمذي في السنن: كتاب السير: باب ما جاء في الطيرة 4/138 رقم (1615) من حديث أنس مرفوعا، وقال عنه: "هذا حديث حسن صحيح"، وابن ماجه في السنن: كتاب الطب: باب من كان يعجبه الفأل، ويكره الطيرة 2/1170 رقم (3537) من حديث أنس مرفوعا ومختصرا، وأحمد في المسند 2/507 من حديث أبي هريرة مرفوعا، 3/118، 130، 154، 173، 178، 251، 276، 277، 278 من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعا به، وبنحوه .

[167] - الحديث أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب االطب: باب الفأل 7/175 من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعا بهذا اللفظ، ومسلم ني الصحيح: كتاب الطب: باب الطيرة والفال، وما يكون فيه من الشؤم 4/1746 رقم (2223، 2224)، من حديث أنس بن مالك، وأبي هريرة كليهما مرفوعا. وأبو داود في السنن: كتاب الطب: باب في الطيرة 4/18 رقم (3916) من حديث أنس بن مالك مرفوعا بلفظ :لا عدوى، ولا طيرة، ويعجبني الفأل الصالح، والفأل الصالح الكلمة الحسنة" وكان هذه الرواية بيان لما أجمل في رواية البخاري من قوله: "ويعجبني الفأل الصالح: الكلمة الحسنة"، والترمذي في السنن: كتاب السير: باب ما جاء في الطيرة 4/138 رقم (1615) من حديث أنس مرفوعا، وقال عنه: "هذا حديث حسن صحيح"، وابن ماجه في السنن: كتاب الطب: باب من كان يعجبه الفأل، ويكره الطيرة 2/1170 رقم (3537) من حديث أنس مرفوعا ومختصرا، وأحمد في المسند 2/507 من حديث أبي هريرة مرفوعا، 3/118، 130، 154، 173، 178، 251، 276، 277، 278 من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعا به، وبنحوه .

[168] - الحديث أخرجه الترمذي في السنن: كتاب اللطب: باب ما جاء أن العين حق، والغسل لها 4/347 رقم (206) من حديث حابس التميمي أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :لا شيء في الهام،والعين حق" وأورده الحافظ ابن حجر في فتح الباري 10/214، وعزاه إلى الترمذي ولكن بلفظ: "العين حق، وأصدق، الطيرة الفأل،، ولعله نقله من حفظه، وإلا فقد تقدم لفظ الترمذي.

يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بالله" . ([169])
وكان صلى الله عليه وسلم يعجبه الفأل، ويكره الطيرة . ([170])
فهذه النصوص وغيرها قاطعة الدلالة في حرمة الطيرة والتشاؤم؛ لأن ذلك كله شرك، يجر على صاحبه خسارة الدنيا والآخرة.
غاية ما في الأمر أنه قد يقال: كيف يكون هذا شركاً، وكيف يلحقه الذم، وقد أباح النبي صلى الله عليه وسلم نوعا منه، وهو التفاؤل، حيث قال: "وخيرها الفأل" أو "ويعجبني الفأل الصالح"؟. والجواب: أن هذا ليس إباحة للطيرة، وإنما هو من باب قول العرب: "الصيف أحر من الشتاء" يعني: الفأل في بابه أبلغ من الطيرة في بابها، وباب الفأل هو التيامن، كما أن باب الطيرة هو التشاؤم . ([171])
ويقوي ذلك الأحاديث الكثيرة الدالة على حرمة التطير وقد مضت، والأحاديث الدالة على إباحة التفاؤل ومنها: أنه صلى الله عليه وسلم إذا خرج لحاجته يعجبه أن يسمع: "يا نجيح، يا راشد" ، ([172]) وأنه صلى الله عليه وسلمكان لا يتطير من شيء، وكان إذا بعث عاملا يسأل عن اسمه، فإذا أعجبه فرح به، وإن كره اسمه رؤي كراهة ذلك في وجهه، وإذا دخل قرية سأل عن اسمها... الحديث . ([173])
يقول الإمام الحليمي صاحب المنهاج في شعب الإيمان: "وإنما كان صلى الله عليه وسلم يعجبه الفأل؛ لأن التشاؤم سوء ظن

---

[169] - الحديث أخرجه أبو داود في السنن: كتاب االطب: باب في الطيرة 4/19 رقم (3919) من حديث عروة بن عامر القرشي، ولا صحبة له تصح، فعلى هذا يكون الحديث مرسلا.
[170] - انظر: فتح الباري 10/214 بتصرف.
[171] - انظر: فتح الباري 10/214 بتصرف.
[172] - الحديث أخرجه الترمذي في السنن: كتاب اللشر: باب ما جاء في الطب 4/138 رقم (1616) من حديث أنس بن مالك مرفوعا بهذا اللفظ، وعقب عليه بقوله: "هذا حديث حسن غريب صحيح".
[173] - الحديث أخرجه أبو داود في السنن: كتاب االطب: باب في الطيرة 4/19 رقم (3920) في حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه مرفوعا بهذا اللفظ، وحسنه ابن حجر في فتح الباري 10/215.

بالله تعالى بغير سبب محقق، والتفاؤل حسن ظن به، والمؤمن مأمور بحسن الظن بالله تعالى على كل حال" . ([174])
ويقول الإمام الطيبي: "معنى الترخص في الفأل، والمنع من الطيرة هو أن الشخص لو رأى شيئا، فظنه حسنا محرضا على طلب حاجته فليفعل ذلك، وإن رآه بغير ذلك فلا يقبله، بل يمضي لسبيله، فلو قبل وانتهى عن المضي فهو الطيرة التي اختصت بأن تستعمل في الشؤم" . ([175])

ثالثا: أسباب التشاؤم:

وللتشاؤم أسباب كثيرة تؤدي إليه، وبواعث عدة توقع فيه، وأهم تلك ا لأسباب، وهذه البواعث:

1 - عدم معرفة الله حق المعرفة:

ذلك أن المرء إذا لم يعرف ربه حق المعرفة من أنه - سبحانه - موصوف بالكمال، والجــلال: {تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام} (الرحمن: 78)، فهو الخالق، المالك، المدبر، الناصر لأهله، وأوليائه، الرحيم بهم، المنتقم من أعدائه، المذل لكبريائهم، الذي يمهل ولا يهمل، إلى غير ذلك من الصفات، إذا لم يعرف المرء هذا فإنه يسيء ظنه بربه، ولا يثق به، ويتصور أنه مأخوذ بذنبه لا محالة، فلا عفو ولا صفح، وأنه لن يؤيد، ولن ينصر، بل ربما انقلب هذا الظن، وما يجره من عدم الثقة بالله إلى أن يعتقد قدره المخلوقات وارتباط الحوادث اليومية بالغيب، فيتولى هؤلاء المخلوقين من دون الله، ويكون التطير والتشاؤم.
ومن أجل حماية المسلم من مثل هذا الظن السيء ألزم الله المسلم التأمل المستمر في النفس، وفي الكون، وجعل هذا

---

[174] - انظر: فتح الباري 10/215.
[175] - انظر: فتح الباري 10/215.

التأمل طريقا لمعرفة الله حق المعرفة، وتمام الثقة واليقين، فقال - سبحانه: {وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون} (الذاريات: 20-21)، {سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق} (فصلت: 53)، {وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها} (النمل: 93).

كما تولى القرآن التعريف بالله بصورة تزرع الثقة واليقين به سبحانه وتعالى، وكان ذلك منذ بدأت آيات الوحي تتنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى ختم هذا الوحي، يقول سبحانه: {اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم} (العلق)، {الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الديـن...}، (سورة الفاتحـة)، {تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور الذي خلق سبع سموات طباقا ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير} (الملـك:1- 4)، إلى غير ذلك من الآيات.

وتولى النبي صلى الله عليه وسلم ذلك أيضا، فقال في بيان قدرته سبحانه: "بينما رجل يسوق بقرة، إذ ركبها، فضربها، فقالت: إنا لم نخلق لهذا، إنما خلقنا للحرث" فقال الناس: سبحان الله، بقرة تتكلم، فقال: "إني أومن بهذا أنا، وأبو بكر، وعمر وما هما ثمَّ، وبينما رجل في غنمه، إذ عدا الذئب، فذهب منها بشاة، فطلب حتى كأنه استنقذها منه، فقال له الذئب: هذا استنقذها مني، فمن لها يوم السبع، يوم لا راعي لها غيري"، فقال الناس: سبحان الله: ذئب يتكلم، قال: "فإني أؤمن بهذا أنا، وأبو بكر، وعمر: وما هما ثم" . ([176])

---

[176] - الحديث أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب االأنبياء: باب منه 4/212، ومسلم في الصحيح: كتاب فضائل الصحابة: باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه 4/1857، 1858 رقم (2388) كلاهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا، واللفظ للبخاري.

وقال في بيان إمهاله للظالمين، ثم أخذهم أخذ عزيز مقتدر: "إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته" . ([177])

2 - عدم معرفة النفس معرفة حقيقية:

وذلك أن المرء إذا لم يعرف نفسه معرفة حقيقة، وأن الله زود هذه النفس بطاقات وإمكانات هائلة تؤهلها لمهمة العبودية، والاستخلاف في الأرض، كما نطق بذلك الحديث الشريف إذ يقول صلى الله عليه وسلم: "لما خلق الله الأرض جعلت تميد، فخلق الجبال، فألقاها عليها فاستقرت، فتعجبت الملائكة من خلق الجبال، فقالت: يا رب هل من خلقك شيء أشد من الجبال؟ قال: نعم، الحديد، قالت: يا رب هل من خلقك شيء أشد من الحديد؟ قال: نعم، النار، قالت: يا رب هل من خلقك شيء أشد من النار؟ قال: نعم، الماء، قالت: يا رب فهل من خلقك شيء أشد من الماء؟ قال: نعم، الريح، قالت: يا رب فهل من خلقك شيء أشد من الريح؟ قال: نعم، ابن آدم، يتصدق بيمينه يخفيها من شماله" . ([178])

وأنه ما على هذا المرء إلا أن يجاهد نفسه، وأهواءه، ونزعاته، إذا لم يعرف المرء نفسه بهذه الصورة، فإنه ينهزم من داخله، ويحتقر هذه النفس، ولا سيما في هذه الآونة التي نعيشها اليوم والتي أمسك فيها العدو بخناقنا، وأكثر علينا من الدعايات والأكاذيب أنا ضعفاء، وأنا لم نعد نحسن شيئا، وحين ينهزم المرء من داخله، ويحتقر نفسه يكون التشاؤم من أقل شيء، ومن أدنى حادث.

ولعل هذا هو السر في تحذيره صلى الله عليه وسلممن الانهزام النفسي، والاستسلام، والضعف، والخور، إذ يقول صلى الله عليه وسلم: "المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا

---

[177] - الحديث أخرجه أحمد في المسند 3/124 من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعا بهذا اللفظ.
[178] - الحديث أخرجه أحمد في المسند 3/124 من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعا بهذا اللفظ.

تعجز..." الحديث ، ([179]) "لا يحقرن أحدكم نفسه قالوا: يا رسول الله، كيف يحقر أحدنا نفسه؟ قال: "يرى أمرا لله عليه فيه مقال ثم لا يقول فيه، فيقول الله - عز وجل - له يوم القيامة: ما منعك أن تقول في كذا وكذا؟ فيقول: خشية الناس، فيقول: فإياي كنت أحق أن تخشى" . ([180])

3 - عدم معرفة الكون معرفة حقيقية :

وذلك أن المرء إذا لم يعرف حقيقة هذا الكون الذي يعيش فيه وأنه من خلق الله، وتدبيره، وأنه سخره لنا، وضمن استمرار هذا التسخير بالطاعة، وانقطاعه بالمعصية، فقال - سبحانه : {الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون وهو الذي مدّ الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشي الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون وفي الأرض قطع متجاورات وجنّات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون} (الرعد: 2- 4)، {الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار} (إبراهيم: 32- 33)، {الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون} (الجاثية: 96)، {ولو أن أهل

---

[179] - الحديث أخرجه ابن ماجه في السنن: كتاب االفتن: باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر 2/1328 رقم (4008)، وقال عنه البوصيري في مصباح الزجاج 4/182: "هذا إسناد صحيح، وأحمد في المسند 3/30، 47، 48، 73، 91، 92 كلاهما من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعا، واللفظ لابن ماجه.

[180] - الحديث أخرجه ابن ماجه في السنن: كتاب االفتن: باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر 2/1328 رقم (4008)، وقال عنه البوصيري في مصباح الزجاج 4/182: "هذا إسناد صحيح، وأحمد في المسند 3/30، 47، 48، 73، 91، 92 كلاهما من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعا، واللفظ لابن ماجه.

القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون} (الأعراف: 96).
وإن في واقع البشرية نماذج عملية تشهد بهذه الحقيقة، وتؤكد هذه السنة، فهذا داود عليه السلام يلين الله له الحديد بطاعته لله : {ولقد آتينا داود منّا فضلا يا جبال أوبي معه والطير وألناله الحديد أن اعمل سابغات وقدِّر في السَّرْد} (سبأ: 10).
وهذا ولده سليمان يسخر الله له الريح، والطير، والوحش، والإنس، والجن بطاعته لله كذلـك: {ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأرسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقذور راسيات} (سبأ: 12).
وهذا محمد صلى الله عليه وسلم ينصره الله - عز وجل - ومن معه في غزوة الأحزاب، بالريح، والملائكة، فيقول سبحانه: {يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بها تعملون بصيرا} (الأحزاب: 9)، بينما يسلط هذه الريح على عاد قوم هود عندما طغوا في البلاد، وأكثروا فيها الفساد، وقالوا: من أشد منا قوة، فقال: {وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ما تذر من شيء أتت علية إلا جعلته كالرميم} (الذاريا ت:41-42) ويرسل الحجارة على قوم لوط عندما أصروا على إتيان الرجال، وقطع السجيل، وفعل المنكــرات: {فأخذتهم الصيحة مشرقين فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل} (الحجر: 73- 47).
ويغرق بالماء فرعون وقومه حين طغى، وبغى، وقال: أنا ربكم الأعلى: {فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين} (الزخر ف: 55 - 56).

إذا لم يعرف المرء حقيقة الكون، وكيفية التعامل معه على النحو الذي شرحنا، فإنه يسوء ظنه بكل شيء فيه، ويعاديه، ويكون التطير، والتشاؤم .

4 - عدم معرفة العدو على حقيقته :

وذلك أن المرء إذا لم يعرف عدوه على حقيقته، وأن عداوته قديمة منذ أمر إبليس بالسجود لآدم فأبى واستكبر، وكان من الكافرين، وأن هذا العدو لا يفتأ يكيد بكل ما أوتي من أساليب ووسائل: {قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين} (الأعراف: 16-17).

وأنه لا وزن لهذا الكيد ما دامت الصلة قوية بالله: {ومن يتق الله يجعل له مخرجا ج ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا} (الطلاق: 2- 3)، {إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين} (الحجر: 42)، {يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا} (الأنفال: 29)، {وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم} (فصلت: 36)، {إنّما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين} (آل عمران: 175).

إذا لم يعرف المرء حقيقة عدوه على الصورة التي شرحنا، فإنه يهابه ويخافه، ويستجيب لدعاياته، وأكاذيبه، ويكون التطير والتشاؤم من أدنى شيء، ومن أي حادث من الحوادث .

5 - عدم فقه ماهية الجهاد والنصر فقها حقيقيا :

وذلك أن نفرا من المسلمين قد فقهوا الجهاد بمعناه العرفي وهو ملاقاة العدو بالقوة، ممثلة في الضرب بالسيوف أو الطعن بالرماح، أو الرمي بالسهام، أو ما يقوم مقام ذلك مما ابتكرته

مدنية العصر من استخدام البنادق، والمدافع، والدبابات، والمصفحات، والطائرات، والغواصات ونحوها.
وغاب عن بالهم معناه الاصطلاحي، وهو بذل أقصى ما في الطاقة والوسع من أجل تحرير الأرض كلها من أي سلطان مناوئ لسلطان الله - عز وجل - بحيث يشمل جهاد النفس، وجهاد العدو باليد، وباللسان، وبالقلب، وكذلك يتناول تجهيز الغزاة، والقيام بحاجة أهليهم، وأولادهم سواء رجعوا إليهم، أو لقوا ربهم شهداء، بل إنه يتناول ما هو أبعد من ذلك، من مثل دعوة الناس، وتعليمهم، وحضهم على الجهاد واستحضار نية الغزو، ما دامت هناك عين تطرف أو عرق ينبض، مع أخذ الأهبة والاستعداد لتحويل هذه النية إلى واقع حي متحرك في دنيا الناس، وطبيعة الظروف التي يعيشها المسلم هي التي تحدد نوع الجهاد الواجب والرباط المطلوب.
وكذلك فقه هذا النفر النصر بمعناه العرفي وهو تحرير الدار والأرض من سيطرة الغاصب المحتل، وغاب عن بالهم معناه الاصطلاحي وهو التحرر من سيطرة الباطل، سواء أكان ذلك في النفس أم في واقع الحياة.
فقهوا الجهاد والنصر بالمعنى العرفي الضيق، لا بالمعنى الاصطلاحي الواسع، وحين لم يتحقق لهم شيء من هذين تطيروا وتشاءموا، وهكذا كل من لم يفقه الجهاد والنصر الفقه الصحيح يقع في التطير والتشاؤم.

6 - كثرة المحن والابتلاءات مع الغفلة عن أسرار هذه المحن وتلك الابتلاءات:

وذلك أن المسلم إذا نظر إلى واقعه، وواقع أمته اليوم، ورأى كثرة وتتابع المحن، والابتلاءات، في نفسه، وفي أهله، وولده، وذويه، وإخوانه، وماله، وغفل عن أسرار هذه المحن وتلك الابتلاءات، من أنها قد تكون لتقويم العوج: {ولقد صدقكم الله وعدة إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر

وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم} (آل عمران: 152).
وقد تكون لتمحيص المؤمنين ومحق الكافرين {وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين} (آل عمران:141)، {ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب} (آل عمران: 179)، {ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منهم والصابرين ونبلو أخباركم} (محمد: 31).
وقد تكون تكفيرا للسيئات، ورفعا للدرجات بالنسبة للمؤمنين مصداقا لقوله صلى الله عليه وسلم: "ما يصيب المسلم من نصب، ولا وصب، ولا هم، ولا حزن، ولا أذى، ولا غم حتى الشوكة يشاكها، إلا كفر الله بها من خطاياه" ، ([181])
"إذا سبقت للعبد من الله منزلة لم يبلغها بعمله ابتلاه الله في جسده، أو في ماله، أو في ولده، ثم صبره حتى يبلغه المنزلة التي سبقت له منه" ، ([182]) وقد تكون لغير ذلك.
إذا رأى المسلم المحن والبلايا بهذه الكثرة، وغفل عن فقه أسرارها، أصيب بالانهزام النفسي وما يتبعه من التطير والتشاؤم.

7 - العيش في وسط متشائم:

وقد يعيش المسلم في وسط مريض بالتشاؤم، ولا سيما إذا كان هذا العيش قبل النضج، وكمال التربية، وحينئذ يتأثر بهذا الوسط، ويصاب هو الآخر بمرض التشاؤم .

8 - الغفلة عن طبيعة الصراع بين الحق والباطل :

وقد يغيب عن بال المسلم طبيعة الصراع بين الحق والباطل، ويرى اليوم نشوة الباطل، وانتفاخه، وقوة صولجانه، وضعف الحق، وقلة أنصاره، وانزواءه، فيظنها سنة عامة مضت بها كل

---

[181] - الحديث سبق تخريجه في الجزء الثاني، آفة: "ضعف أو تلاشي الالتزام".
[182] - الحديث سبق تخريجه.

العصور، وستبقى كذلك إلى آخر الزمان، وحينئذ يبتلى بالتشاؤم.
ولعل هذا هو السر في اشتمال القرآن الكريم على قصصن الماضين وما يحمله هذا القصص من عظات وعبر، بل ودعوته إلى التدبر والتفكر في هذا القصص ونتائجه، إذ يقول سبحانه: {لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب} (يوسف: 111)، {فاقصص القصص لعلهم يتفكرون} (الأعراف: 176)، {قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين} (آل عمران:137- 138).

9 - قياس واقع الأمة بحاضرها دون النظر إلى الماضي :

وقد يقيس البعض واقع الأمة اليوم بما هي فيه من حاضر فيرى الشرور، والآثام، والفساد المنتشر هنا وهناك والحروب الضروس الموجهة للإسلام وأهله، وممن؟ من أبناء جلدتنا، والناطقين بلغتنا، والمسمين بأسمائنا يقيس هذا الواقع بالنظر إلى هذا الحاضر المرير، وينسى الماضي، والماضي القريب، وكيف تنصّلت الأمة من إسلامها أو هكذا أريد لها أن تتنصل من إسلامها ؛ حيث كانت الصحف والمجلات، وباقي وسائل الإعلام لا هم لها إلا الطعن في الإسلام ونشر موجة الإلحاد، والإباحية بين الناس، وعضدها وساعدها نفر من الكتاب تربيتهم وتوجيههم غربي، بل فرض ذلك فرضا بقوة السلطان وكانت الثمرة سقوط الخلافة الإسلامية، وتقسيم الدولة إلى دويلات وشيوع الموبقات من الشرك بالله، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والعقوق، والقطيعة، ونبذ منهج الله والتحاكم إلى المناهج الوافدة من هنا وهناك، والمصنوعة بأيدي البشر، وبمثل هذا المقياس يمكن أن يكون الوقوع في غوائل التطير، والتشاؤم.

10 - عدم إدراك عواقب التشاؤم :

وأخيرا قد يكون عدم إدراك عواقب التشاؤم الدنيوية والأخروية الفردية والجماعية، هي السبب في الوقوع في آفة التشاؤم .

رابعا: آثارا لتشاؤم:

وللتشاؤم آثاره السلبية، وعواقبه المهلكة على العاملين، وعلى العمل ا لإسلامي، ودونك طرفا من هذه ا لآثار، وتلك العواقب:

أ - على العاملين :

فمن آثار التشاؤم على العاملين:

1 - التراخي مع النفس ربما إلى حد التطاول على حدود الله، والوقوع في حبائل الشرك والعياذ بالله :

وقد رأينا أقواما ملء السمع والبصر في العمل الإسلامي، ثم سيطر عليهم التشاؤم، فإذا هم خارج دائرة العمل الإسلامي، وإذا الشياطين قد اغتالتهم، ففرطوا وأسرفوا على أنفسهم، وتطاولوا على حدود الله، وتحول ولاؤهم للشيطان وحزبه، بعد أن كان ولاؤهم لله ولرسوله، وللمؤمنين الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، وهم راكعون، بل لقد حدثني من أثق به أن أحدهم كان يبكي الناس بحديثه، وتلاوته لآيات الله، وقد خاض محنة قاسية شديدة اضطرته إلى الهجرة، والعيش في ديار الغربة، ثم ابتلي بالدنيا بعدها، وسيطر عليه التشاؤم من أن العمل الإسلامي سيظل هكذا في مكانه، ولن يصل إلى ما يريد، وكان أن ترك، وأصبح ذيلا أو ذنبا، أو ظلا لملك من ملوك الأرض يرى مما تراه عينه وما يريد، فيفتي به، وضاع مع الضائعين .

2 - القلق والاضطراب النفسي:

وذلك لما قدمنا من أن التطير أو التشاؤم شرك، وقد آلى الله - عز وجل - على نفسه أن ينتزع من قلوب أولئك الأمن والأمان، والطمأنينة، كما يفهم من قوله سبحانه: {الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون} (الأنعام: 82)، {ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون} (الزمر: 29).
وكما جاء صريحا في قوله سبحانه: {ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا}، (الجن: 17)، {ومن أغرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا} (طه: 124).

3 - تعريض النفس لغضب الله وسخطه :
وذلك أن التشاؤم إذا وصل إلى حد القعود عن أداء الواجب فقد صار لونا من ألوان الشرك، يجر إلى كثير من المعاصي والسيئات، والمعاصي والسيئات توجب غضب الله، وسخطه، وماذا يجني من حل عليه غضب الله وسخطه، سوى الضياع والعذاب، وصدق الله: {ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى} (طه: 81).

ب - على العمل الإسلامي :

وأما آثار التشاؤم على العمل الإسلامي فكثيرة، نذكر منها:

1 - التثبيط والتعطيل للآخرين:
وذلك أن قعود المتشائم قد يؤدي إلى تثبيط همم الآخرين وقعودهم مثله، ولا سيما في صفوف الناشئة الذين ليست لديهم الحصانة، وحينئذ يتحمل المتشائم إثمين:
الأول: إثم تشاؤمه وقعوده عن أداء دوره، والقيام بواجبه.

والآخر: إثم تثبيط همم الآخرين، وتعطيلهم عن المضي في الطريق.

2 - الحرمان من العون والمدد الإلهي:

وذلك أن سنة الله - سبحانه - في خلقه مضت أن يمنح التأييد التام، والعطاء الكامل لمن وصلوا أنفسهم به، فحسنوا الظن ومضوا على الطريق مجاهدين، لا يلوون على شيء إلا على مغفرته ورضوانه، أما إن أساءوا، وتشاءموا، فإنه يقطع عنهم عونه، ومدده، وان كان فلا يكون كاملا، وربما يكون من باب: {سنستدرجهم من حيث لا يعلمون}، (الأعراف: 182).

3 - طول الليل مع استمرار حياة الذل والهوان:

وذلك أن التشاؤم إذا انتهى إلى القعود عن أداء الواجب، والحرمان من العون والمدد الرباني، فإن أعداء الله يحكمون القبضة ويطول الليل، وتستمر حياة الذل والهوان، وهذا ما نعيشه نحن المسلمين اليوم، فالمتشائمون فينا قعدوا، وأقعدوا، وحرمنا بسببهم العون الكامل، والنصير من البشر، فطوق العدو أعناقنا، وطال الليل، وصرنا إلى ذلّ لا ذل بعده، وهوان لا يعدله هوان.

خامسا: علاج التشاؤم

ونستطيع بعد وقوفنا على ماهية وصور التشاؤم، وموقف الإسلام منه وكذلك بعد معرفتنا لأسبابه، وبواعثه، وآثاره المهلكة على العاملين، وعلى العمل الإسلامي، أن نرسم طريق العلاج والوقاية من هذه الآفة، وتتلخص في الخطوات التالية:

1 - التعريف بالله تعريفا يورث الثقة واليقين: وطريق ذلك التأمل في النفس وفي الكون: {وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون} (الذاريات: 20-21).
وأيضا معايشة الكتاب والسنة، إذ ليس في الدنيا مصدر يعدلهما ثقة، وعصمة، وفيهما الدواء، والغذاء إن شاء الله.
ثم النظر في سير أصحاب الدعوات، ومن تابعوهم على الطريق وكيف كان جهادهم، وصبرهم، وتحملهم، وتفاؤلهم حتى أعزهم الله بعزه، وأمدهم بجنده، ومكن لهم في الأرض كما قال سبحانـه: {كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز} (المجادلة:21)، {ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون} (الصافات: 171-173).
2 - التعريف بالنفس تعريفا يدفعها إلى مقاومة التشاؤم، والانهزام انفسي، والثقة بأنها قادرة بعون الله ومدده على الكثير، شريطة أن تتجرد من حظوظها، وأن تتواضع لربها، وأن تستسلم له وتخضع، وتنقاد: "لا يحقرن أحدكم نفسه..." الحديث ، ([183])
{والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإنّ الله لمع المحسنين} (العنكبوت).
3 - التعريف بالكون تعريفا يبصرنا بكيفية الإفادة منه لخير البلاد والعباد، وذلك يلفت النظر إلى أن هذا الكون مسخر لنا، وقد خلق لمصلحتنا، وأن علينا أن نواظب على الطاعة والاستقامة لله - عز وجل - حتى يظل هذا الكون منسجماً معنا، غير متمرد علينا، دائم العطاء لنا، كما قال سبحانـه: {وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا} (الجن: 16).
ولا شك أن انسجام الكون معنا، وعدم تمرده علينا، وديمومة عطائه لنا بسبب استقامتنا مع ربنا، وطاعتنا له - تبارك وتعالى -

---

[183] - الحديث أخرجه الترمذي في السنن: كتاب اللزهد : باب ما جاء في الصبر على البلاء 4/520 رقم (2398) وعقب عليه بقوله: "هذا حديث حسن صحيح"، والنسائي في الكبرى: كتاب الطب: باب أي الناس أشد بلاء 4/352 رقم (7481)، وابن ماجة في السنن: كتاب الفتن: باب الصبر على البلاء 2/1334 رقم (4023)، وأحمد في المسند 1/172، 174، 180، 185، كلهم من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه به.

مما يفتح باب الأمل، والتفاؤل أمام المتشائمين، ويجعلهم يوقنون أن مزيدا من الطاعة والاستقامة تجعل كل ما في الكون معنا حربا ونارا على كل من يحادون الله ورسوله، ويصدون عن سبيل الله، ويبغونها عوجا، كما شهد بذلك تاريخ البشرية ا لطويل.

4 - التبصير بواقع العدو ولا سيما من الناحية النفسية، وذلك يلفت النظر إلى أن هذا العدو غير عفيف، ولا نزيه في حربه مع الحق، وأنه لا يتورع من استخدام أي أسلوب يحقق له ما يريد، وإن كان يتنافى مع القيم، والآداب والأخلاق لأن من منطلقاته الثابتة التي لا تتغير ولا تتبدل أبداً: أن الغاية تبرر الوسيلة، وأن الكذب والدجل وقلب الحقائق هو جوهر هذه الأساليب، وأنه وإن كان يبدو متماسكا مترابط الجأش أمامنا، إلا أنه في حقيقة أمره، خائف، وجل من داخله، يعاني الكثير والكثير، كما قال سبحانه: {ولا تهنوابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون} (النساء: 104).

وأنه حاقد من داخله لا يحب أحدا، حتى أبناء جلدته كما قال سبحانه: {تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى{ (الحشر: 14).

وأنه ليس له من مولى يعتمد عليه في حربه لنا سوى الشيطان، والشيطان لا حول له ولا قوة، في جنب حول وقوة خالقه، وباريه، والممسك بناصيته: {أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون} (المجادلة: 19).

إذا تبصر المسلم ذلك، وتبصر أن الله مولاه، وقد وعد بنصر المؤمنين ودحض المبطلين والمجرمين، كما قال سبحانه: {ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافـرين لا مولى لهـم} (محمد: 11)، {كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز} (المجادلة:21)، ووصلت هذه البصيرة لديه إلى حد اليقين، فإنه يتحرز من التشاؤم، ويفتح أمامه باب ا لأمل، والتفاؤل، والتيامن.

5 - إحياء الفقه الاصطلاحي لا العرفي لكل من الجهاد والنصر، كي يطمئن المعلم، والمربي، والطبيب، والمهند س، والفلكي، والجيولوجي، والتاجر، والصانع، والزارع وغيرهم أنهم بعملهم هذا حين يقصدون به وجه الله، وامتثال أوامره، وإعزاز الأمة، وتحريرها من أن تبقى عالة على عدوها يتحكم فيها كما يشاء، وكيفما شاء، فإنهم مجاهدون كالمحارب في ميدان القتال سواء بسواء، وأنهم كذلك بثباتهم على منهجهم في وجه الامتحانات والابتلاءات سواء أكانت شدة أم رخاء، بل حتى موتهم وهم ثابتون على هذا المنهج، عاملون له، يكتبون في سجل المنتصرين، ورضي الله عن هذا الصحابي الجليل، الذي جاءته ضربة مسددة من قبل عدوه دخلت في ظهره، فخرجت من صدره فهتف بأعلى صوته قائلا: "فزت ورب الكعبة، فزت ورب الكعبة"، إن إحياء مثل هذا الفقه، له دور كبير في القضاء على التشاؤم وملء النفس بالتفاؤل، والتيامن.

6 - التأكيد على فقه المحن والابتلاءات، وأنها ليست أبدا دليل عدم الرضا من الله، فقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم -كما قدمنا- : أي الناس أشد بلاءً؟ قال: "الأمثل، ثم الأمثل، فالأمثل، يبتلى الناس على قدر دينهم، فمن ثخن دينه اشتد بلاؤه، ومن ضعف دينه ضعف بلاؤه، وإن الرجل ليصيبه البلاء، حتى يمشي على الأرض ما عليه خطيئة " ، ([184])

وإما قد تكون لحكمة يعلمها الله، وهي في النهاية لصالح المسلم، إن مثل هذا الفقه يقتلع التشاؤم من أغوار النفس، ويزرع مكانه الأمل، والتفاؤل.

7 - الانسلاخ من صحبة المتشائمين، والارتماء في أحضان المتفائلين الواثقين بربهم، وبمنهجهم، وبقدوتهم، وبأنفسهم، وبأمتهم الآخذين من ماضيهم العبرة لحاضرهم، فإن مثل هذا

---

[184] - الحديث أخرجه الترمذي في السنن: كتاب اللزهد : باب ما جاء في الصبر على البلاء 4/520 رقم (2398) وعقب عليه بقوله: "هذا حديث حسن صحيح"، والنسائي في الكبرى: كتاب الطب: باب أي الناس أشد بلاء 4/352 رقم (7481)، وابن ماجة في السنن: كتاب الفتن: باب الصبر على البلاء 2/1334 رقم (4023)، وأحمد في المسند 1/172، 174، 180، 185، كلهم من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه به.

الانسلاخ له دور كبير في علاج التشاؤم، وتحلية النفس بالتفاؤل والتيامن .
8 - دوام النظر في قصص الماضين مكذبين ومصدقين، وطبيعة الصراع بينهم، والنتيجة التي أسفر عنها هذا الصراع، فإن ذلك يطمئن المؤمنين، ويريحهم من داخلهم أن العاقبة لهم مصداقا لقوله سبحانه: {والعاقبة للمتقين} (القصص: 83)، {ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون} (الأنبياء: 105)، {ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله فهل ينظرون إلا سنت الأولين فلن تجد لسنت الله تبديلا ولن تجد لسنت الله تحويلا} (فاطر: 43)، {قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين} (آل عمران:137).
9 - الموازنة المستمرة بين حاضر هذه الأمة، وماضيها القريب، ولا سيما هذا الماضي الذي اقترن بسقوط الخلافة الإسلامية، وسيظهر من هذه المقارنة أنه بعد أن كان الالتزام بالشعائر التعبدية أو بالعبادات المخصوصة من صلاة، وزكاة، وصيام، وحج، وعمرة، وحفظ وتلاوة لكتاب الله، والذكر، والدعاء، والاستغفار، والحفاظ على الحجاب والزي الإسلامي، سمة واضحة من سمات كبار السن الذين أحيلوا إلى التقاعد عن العمل أو هدهم المرض، فوهنت قواهم وضعفت بنيتهم، فلا يصلي إلا العجوز رجلا أو امرأة، ولا يرسل اللحية إلا الكبير الطاعن في السن، ولا تلتزم بالحجاب والزي الإسلامي إلا العجوز التي صارت من القواعد، ولا يحج، ولا يعتمر إلا العجائز، ولا يصوم إلا الكبير... وهكذا حتى كان الشاب الذي يحاول الالتزام بهذه الشعائر محل سخرية واستهزاء من الآخرين.
بعد هذا كله تبدلت الصورة، وصار الالتزام بهذه الشعائر هو السمت العام في الأمة، ولا سيما في صفوف الشباب، وخير دليل على ذلك : المساجد في أيام رمضان، ولا سيما في العشر الأواخر، عشر الاعتكاف، حيث تغص هذه المساجد بالشابات

والشباب كل في مصلاه، وصلاة العيد، حيث تمتلئ الساحات بالشباب، والشابات، والأطفال كل في مصلاه، والحج والعمرة حتى أصبحت نسبة الشباب والشابات إلى العجائز كبيرة جدا ربما تجاوز السبعين في المائة، وكذلك الالتزام بالحجاب والزي الشرعي صار هو السمة العامة في الأمة، حتى المتبرجات اللائي يرغبن في الزواج صرن على يقين أن الشباب لا يرغب فيهن، وهن هكذا متبرجات، ومن ثم يرتدين الحجاب، وإن لم يكن كاملاً، ولكنه خطوة على الطريق، ودليل أن الأمة قطعت شوطا لا بأس به على طريق العودة إلى الإسلام، وانتشرت أيضا مدار س، ومعاهد، وحلقات القرآن، والحديث حفظاً، وترتيلا، وفقها، وتدبرا، حتى في قعر أوربا الشرقية والغربية وأمريكا.

وبعد أن كانت اللامبالاة، وعدم التفريق بين الحلال والحرام في المطاعم والمشارب، والملابس، والمراكب، والسكن هي السمة العامة في الأمة، حتى انتشرت البنوك الربوية في كل بلاد المسلمين، وحتى عمت وشاعت الرشوة، والغش، والاحتكار، والسلب والنهب هنا وهناك، بعد هذا كله صارت الدقة في تحري الحلال والحرام هي الأساس والأصل، فكانت البنوك والمصارف الإسلامية الموزعة في كل أنحاء العالم، والتي جاوزت الخمسين حتى الآن، وصار الإقبال عليها من المسلمين عديم النظير، حتى لو لم يحصلوا عليها عائدا أو فائدة، حسبهم أنها خالية من الربا، وكان السؤال بإلحاح عن كل شيء، أهو حلال أو حرام، حتى سألت امرأة أن زوجها يمشي لزيارة أقاربه، وأموال هؤلاء الأقارب كلها ربا في ربا وهو يأكل عندهم، ثم يعود فيعاشرها، فهل يصيبها شيء من هذا الحرام؟ وحتى أصبح الناس، ولا سيما الشباب والشابات يسألون عن العمل مع هذه الأنظمة التي تحكم بغير ما أنزل الله، وفي ظلها، ولا سيما في الشرطة والجيش والبنوك، وغيرها، وعن العائد المالي من وراء العمل في هذه المؤسسات.

وبعد أن كان الساسة، والحكام والحزبيون وغيرهم يعلنون في إصرار ألا دخل للدين في السياسة، ولا دخل للسياسة في الدين، صارت السمة العامة لأولئك - إرضاء للشعوب المسلمة التي لا يرضيها إلا أن تحكم بشرع الله -أن الإسلام دين ودولة، صحيح هم يقولونها بأفواههم، ولا تؤمن بها قلوبهم، لكن لنا الظاهر، والله يتولى السرائر، وهي كذلك خطوة على الطريق.
وبعد أن كان التعليم ينطلق من العلمانية التي تفصل بين التعليم المدني والتعليم الشرعي، حتى خرج لنا طائفة من الملحدين الذين يحادون الله ورسوله، وتولوا هم بأنفسهم بذر بذور الشر والفساد في الأمة، أصبح التعليم في كثير من المدارس، والمعاهد، والجامعات ينطلق من منطلق إسلامي، ألا وهو عدم الفصل بين التعليم الشرعي والتعليم المدني، بل هناك قدر من العلوم العينية وهو ما تصح به العقيدة، والعبادة، والسلوك، وتضبط به النظم والتشريعات تتعلمه الأمة كلها رجالا ونساء، صغارا، وكبارا، ثم يكون التخصص في فرع أو أكثر من فروع المعرفة التي بها تعز الأمة، وتسود، ولقد أثمر التعليم بهذا المنطلق الجديد حتى صرنا نرى طبيباً أو مهندسا أو فلكيا يحدثك في الإسلام حديثا يفوق به المتخصصين في العلوم الشرعية، إن هذه الموازنة ضرورية لاقتلاع جذور التشاؤم من النفس، وصبغها بصبغة الأمل، والتفاؤل.
10 - التذكير المستمر بعواقب التشاؤم الدنيوية، والأخروية، الفردية والجماعية على النحو الذي شرحنا، فإن ذلك أيضا له دور كبير في علاج التشاؤم، واستبداله بالتفاؤل والتيامن، إذ ا لإنسان كثيرا ما ينسى، وعلاج النسيان إنما يكون بالتذكير الدائم: {وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين} (الذاريات: 55)، {فذكر إن نفعت الذكرى} (الأعلى: 9).
11 - الحرص على حضور التجمعات الإسلامية في موسم الحج، وفي المؤتمرات، وفي الندوات، والمحا ضرا ت، وفي رمضان، وفي ا لعيدين، فان رؤية جموع المسلمين، وإقبالهم على دينهم

مما يزرع في النفس الثقة والتفاؤل، ويخلصها مما تعاني من التشاؤم.
12 - الوقوف طويلا عند الحركات الجهادية التي انطلقت الآن في كل مكان في العالم، ولا سيما في أفغانستان وفلسطين باذلة النفس والنفيس من أجل زحزحة وإزاحة الباطل من طريق الناس، والتمكين لمنهج الله في الأرض، ولقد لاحت بشائر النصر، فها هي أفغانستان يقوم فيها - بمشيئة الله تعالى - بعد جهاد دام قريبا من خمسة عشر عاما حكم إسلامي يطبق القرآن، وهدي النبي الأمين محمد صلى الله عليه وسلم، فضلا عن أن سقوط الشيوعية الحمراء الملحدة التي كانت تحكم نصف العالم كان ثمرة مباشرة من ثمار هذا الجهاد الأفغاني، وها هم أطفال الحجارة في فلسطين يدوخون اليهود والصهاينة في إسرائيل ويجعلونهم يدورون حول أنفسهم متسائلين: أين طريق الخلاص؟ إن الوقوف عند مثل هذه الحركات الجهادية المنتشرة هنا وهناك في كل أنحاء العالم، ولا سيما العربي والإسلامي له دور كبير في زرع الثقة والتفاؤل في النفس، وتحريرها من التطير والتشاؤم.

الآفة الحادية والعشرون
التنطع أو الغلو في الدين

والآفة الحادية والعشرون التي أصابت، وتصيب نفرا من العاملين لدين الله، وتكاد تهوي بأصحابها في أودية الهلاك، ومهاوي الضلال إنما هي: "التنطع أو الغلو في الدين".
وحتى يكون لدينا تصور واضح، أو قريب من الواضح عن أبعاد ومعالم هذه الآفة، فإننا سنعرض لها على النحو التالي:

أولا: ماهية التنطع أو الغلو في الدين:

لغة

التنطع في أصل وضعه اللغوي، مأخوذ من النطع، وهو الغار الأعلى في الفم، أو الجلدة الملتزقة بآخر الفك العلوي من الفم، وبها آثار كالتحزيز، وعندها موقع اللسان في الحنك. ثم استعمل في كل تعمق قولاً، وفعلاً، يقال: تنطع في الكلام وتنطع، إذا تأنق فيه، وتشدق، وتعمق، وتنطع في الفعل إذا تكلف فيه، وأتى بما يشق به على نفسه، وعلى غيره . ([185])
والغلو لغة: هو الارتفاع، أو الإفراط، ومجاوزة الحد أو القدر في كل شيء، تقول: غلا في الدين، وغلا في الأمر غلوا، جاوز حده، وفي التنزيل: {لا تغلوا في دينكم} (النساء: 171) أي لا تفرطوا فيه، ولا تتجاوزوا حد ا لاعتدال، أو حد التوسط . ([186])

اصطلاحا :

---

[185] - نظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير 3/169، ولسان العرب لابن منظور 15/131، 134 بتصرف كثير.
[186] - انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج،، للإمام النووي 16/220 .

أما معنى التنطع أو الغلو في الدين في الاصطلاح الإسلامي فإنما هو : التعمق، أو الإفراط، أو مجاوزة الحد في الأقوال والأعمال ، ([187]) وبعبارة أخرى: هو تحميل الأقوال، أو الكلمات والأعمال فوق ما تحتمل، والتنطع بهذا المعنى يساوي الغلو، كما يساوي التشدد في الدين، وقد جاء التحذير من هذا كله في كتاب الله، وعلى لسان النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته، وسائر السلف، يقول الله - تبارك وتعالى - محذرا أهل الكتاب من الغلو في الدين: {يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلا} (النساء:171)، {قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل} (المائدة: 77).

ويقول النبي صلى الله عليه وسلم: "هلك المتنطعون" ، ([188]) قالها: ثلاثا. ويقول ابن مسعود رضي الله عنه: والذي لا إله إلا هو، ما رأيت أحدا كان أشد على المتنطعين من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما رأيت أحدا كان أشد عليهم من أبي بكر، وإني لأرى عمر كان أشد خوفاً عليهم، أو لهم . ([189])

ويقول أيضاً: عليكم بالعلم قبل أن يقبض، وقبضه أن يذهب بأصحابه، عليكم بالعلم، فإن أحدكم لا يدري متى يفتقر إليه، أو يفتقر إلى ما عنده، إنكم ستجدون أقواما يزعمون أنهم يدعونكم إلى كتاب الله وقد نبذوه وراء ظهورهم، فعليكم

---

[187] - لحديث أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب العلمم: باب هلك المتنطعون 4/2555 رقم (2670)، وأبو داود في السنن: كتاب السنة: باب في لزوم الجماعة 4/201 رقم (4608)، وأحمد في المسند 1/386 كلهم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعا.

[188] - الخبر أخرجه الدارمي في السنن: المقدمة:: باب من هاب الفتيا، وكره التنطع، والتبدع 1/53 من حديث عبد الله بن مسعود موقوفا عليه بهذا اللفظ.

[189] - الخبر أخرجه الدارمي في السنن: المقدمة:: باب من هاب الفتيا، وكره التنطع، والتبدع 1/54 من حديث أبي قلابة موقوفا على ابن مسعود بهذا اللفظ.

بالعلم، وإياكم والتبدع، وإياكم والتنطع، وإياكم والتعمق، وعليكم بالعتيق . ([190])

ويقول نافع مولى عبد الله: إن صبيغا العراقي جعل يسأل عن أشياء من القرآن في أجناد المسلمين، حتى قدم مصر، فبعث به عمرو بن العاص، إلي عمر بن الخطاب، فلما أتاه الرسول بالكتاب فقرأه، فقال: أين الرجل؟ فقال: في الرحل، قال عمر: أبصر أن يكون ذهب، فتصيبك مني العقوبة الموجعة، فأتاه به، فقال عمر: تسأل محدثة؟ فأرسل إلى رطائب من جريد، فضربه بها حتى ترك ظهره دبره ، ([191]) ثم تركه حتى برأ، ثم عاد له، ثم تركه حتى برأ، فدعا به ليعود له، قال: فقال صبيغ: إن كنت تريد قتلي فاقتلني قتلا جميلا، وإن كنت تريد أن تداويني، فقد والله برئت، فأذن له إلى أرضه، وكتب إلى أبي موسى الأشعري ألا يجالسه أحد من المسلمين، فاشتد ذلك على الرجل، فكتب أبو موسى إلى عمر أن قد حسنت توبته، فكتب عمر أن يأذن للناس بمجالسته . ([192])

ويقول مسروق: كنت أمشي مع أبي بن كعب، فقال فتى: ما تقول يا عماه، كذا، وكذا، فقال: يا ابن أخي، أكان هذا؟ قال: لا، قال: فاعفنا حتى يكون . ([193])

ويقول الصلت بن راشد: سألت طاووسا عن مسألة، فقال لي: كان هذا؟ قلت: نعم، قال: آلله؟ قلت: الله، ثم قال: إن أصحابنا أخبرونا عن معاذ بن جبل، أنه قال: أيها الناس لا تعجلوا بالبلاء قبل نزولـه، فيذهب بكم هنا وهنا، فإنكم إن لم تعجلوا بالبلاء

---

[190] - الخبر أخرجه الدارمي في السنن: المقدمة:: باب من هاب الفتيا، وكره التنطع، والتبدع 1/54 من حديث أبي قلابة موقوفا على ابن مسعود بهذا اللفظ.

[191] - الخبر أخرجه الدارمي في السنن: المقدمة:: باب من هاب الفتيا، وكره التنطع والتبدع 1/55، 56 من حديث ابن عجلان، عن نافع مولى ابن عمر، موقوفا على عمر بهذا اللفظ.

[192] - الخبر أخرجه الدارمي في السنن: المقدمة:: باب من هاب الفتيا، وكره التنطع والتبدع 1/56 من حديث مسروق موقوفا على أبي بن كعب بهذا اللفظ.

[193] - الخبر أخرجه الدارمي في السنن: المقدمة:: باب من هاب الفتيا، وكره التنطع والتبدع 1/56 من حديث طاووس موقوفاً على معاذ بهذا اللفظ.

قبل نزوله، لم ينفك المسلمون أن يكون فيهم من إذا سئل سدد، وإذا قالع وفق . ([194])
ويقول إسماعيل بن أبي خالد، سمعت عامراً يقول: استفتي رجل أبي ابن كعب فقال: يا أبا المنذر، ما تقول في كذا وكذا؟ قال: يا بني أكان الذي سألتني عنه؟ قال: لا، قال: أما لا، فأجلني حتى يكون، فنعالج أنفسنا، حتى نخبرك . ([195])
ويقول حماد بن يزيد المقرئ: حدثني أبي، قال: جاء رجل يوما إلى ابن عمر، فسأله عن شيء لا أدري ما هو، فقال ابن عمر: لا تسأل عما لم يكن، فإني سمعت عمر بن الخطاب يلعن من يسأل عما لم يكن ([196]) وغير هذا كثير.

ثانيا: مظاهر التنطع أو الغلو في الدين:

ومظاهر التنطع أو الغلو في الدين كثيرة، نذكر منها :
1 - كثرة الافتراضات، والسؤالات عما لم يقع، أو عما عفا الله - عز وجل - عنه، وسكت، حيث يقول سبحانه: {يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم عفا الله عنها والله غفور حليم قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين} (المائدة: 101-102).
2 - المبالغة في التطوع المفضي إلى ترك الأفضل، أو تضييع الواجب، كمن بات يصلي الليل كله، ويغالب النوم إلى أن غلبته عيناه في آخر الليل قام عن صلاة الصبح في الجماعة، أو إلى أن خرج الوقت المختار أو إلى أن طلعت الشمس فخرج وقت الفريضة.

---

[194] - الخبر أخرجه الدارمي في السنن: المقدمة:: باب من هاب الفتيا، وكره التنطع والتبدع 1/56 من حديث طاووس موقوفاً على معاذ بهذا اللفظ.
[195] - الخبر أخرجه الدارمي في السنن: المقدمة ة باب من هاب الفتيا، وكره التنطع والتبدع 1/50 من حديث حماد بن يزيد المقرئ، عن أبيه موقوفا على ابن عمر بهذا اللفظ .
[196] - انظر السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث للغزالي: المقدمة ص 7- 12 بتصرف كثير.

3 - العدول عن الرخصة في موضعها إلى العزيمة، كمن يباح له التيمم عند العجز عن استعمال الماء، فيترك التيمم، ويصر على استعمال الماء فيفضي به ذلك إلى ضرر في بدنه.
4 - الاشتغال بمسائل الفروع على حساب الأصول، أو استفراغ الجهد في المختلف فيه، مع إهمال المجمع، أو المتفق عليه، كمن يركز على مسائل السواك، أو قصر الثوب، والعذبة ونحوها، ويهمل قضية تعطيل شرع الله في الأرض، أو كمن يقضي وقته في قضية الجهر بالبسملة، أو الإسرار بها، وكذلك قضية وضع اليدين في الصلاة: هل على السرة، أو فوقها، أو تحتها؛ ويهمل الحديث عن انتشار الخمور، وتفشي البغاء، وسفك الدماء، وتتبع العورات، والإفساد في الأرض.
5 - التكفير بالمعصية، أو بالكبيرة، بل تكفير من لم يكفر الكافر، وكذلك جعل الأصل في الأشياء الحظر، أو الحرمة، مع أن القاعدة أن الأصل في الأشياء الإباحة، أو الحل، إلا ما جاء النص بخلافه.
6 - إحياء الكلام في المسائل التي فرضتها ظروف معينة، ثم انتهت بانتهاء هذه الظروف، مثل الكلام في مسائل الصفات، وخلق القرآن، والخلاف الذي نجم بين الصحابة، ونحو ذلك . ([197])

ثالثا: أسباب التنطع، أو الغلو في الدين:

ويوقع في التنطع أو الغلو في الدين أسباب عدة، وبواعث كثيرة نذكر منها:

1 - البيئة :

فقد ينشأ الإنسان في بيئة شأنها الغلو، أو التنطع سواء أكانت بيئة قريبة، ونعني بها البيت، أم بيئة بعيدة، ونعني بها مجتمع

[197] - انظر السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث للغزالي: المقدمة ص 7- 12 بتصرف كثير.

الأصحاب، والأصدقاء، وليست لديه حصانة فكرية، فيحاول الاقتداء، والتأسي، أو على الأقل المحاكاة والتشبه، وحينئذ يقع في آفة التنطع أو الغلو.

2 - التكوين النفسي والفكري:

وقد يكون التكوين النفسي والفكري لنفر من الناس من وراء الوقوع في آفة التنطع أو الغلو، كأن يحرم هؤلاء من المربي أو الموجه الذي يرشدهم، ويوجههم إلى بعد النظر، واتساع الأفق، فينشئون على الوقوف عند الشكليات والقشور، مهملين اللباب والجوهر، وذلك هو عين التنطع، أو الغلو.

3 - الذكاء مع الفراغ، وعدم البصيرة بالأولويات :

وقد يمن الله - عز وجل - على إنسان ما، بقدر من الذكاء الفطري ولكنه يعيش في فراغ، مع عدم البصيرة بالأولويات، ويحاول - شأنه شأن أي إنسان آخر - توظيف هذا الذكاء، وشغل ذلك الفراغ، وحينئذ يكون فريسة آفة التنطع، أو الغلو، إذ أن من سمات النفس البشرية أن صاحبها إن لم يشغلها بالحق، شغلته بالباطل.

4 - الاعتماد على النفس من أول الأمر في تحصيل العلم، أو المعرفة:

وقد تكون لدى المسلم الرغبة في تحصيل العلم، أو المعرفة، ولا دراية له بالطريق فيأخذ في الاعتماد على نفسه من أول الأمر في تحصل هذا العلم، أو هذه المعرفة، ويجعل جل اهتمامه الكتب، فتجنح به هذه الكتب نحو التنطع أو الغلو، نظرا لأن الكتاب وجهة، أو وجهات نظر صامتة، لا تمد لك القدرة على رد التساؤلات التي تثيرها قراءة هذا الكتاب أو الاطلاع عليه، أو التي يثيرها الواقع نفسه.

بينما لو كان تحصل هذا العلم، أو هذه المعرفة بواسطة مربي أو موجه فإن هذا المربي، أو هذا الموجه لسعة اطلاعه، وتجربته، وبصيرته النافذة يمكنه الرد على كل هذه التساؤلات، بل حتى على الشبهات إن وجدت.

5 - الأخذ أو التلقي عن الجاهلين:

وقد تكون لدى المسلم الرغبة في تحصيل العلم أو المعرفة، ولا يعرف على يد من يكون الأخذ، أو التلقي، وتلقي به المقادير في أيد الجاهلين وتصير العاقبة الوقوع في آفة التنطع أو الغلو .

ولعل هذا هو ما أشار إليه النبي صلى الله عليه وسلم حين قال: "إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالما، اتخذ الناس رءوسا جهالا فأفتوا بغير علم، فضلوا، وأضلوا" . ([198])

ولا جرم أن نشير هنا إلى أن المراد بالجهل بالدين ليس هو الجهل المطلق، إذ هذا الجهل المطلق يفضي بصاحبه عادة إلى الانحلال والتسيب لا إلى التنطع أو الغلو، وإنما المراد به الجهل بالاجتهاد وأسلوبه أو طريقته، إذ هو المفضي إلى التنطع أو الغلو.

6 - خلو الساحة أو الميدان من العلماء الذين يضبطون الفكر والتصور بل والسلوك :

وقد يكون خلو الساحة أو الميدان من العلماء الذين يضبطون الفكر والتصور بل والسلوك، هو السبب في الوقوع في آفة التنطع، أو الغلو، ولا سيما إذا كانت هناك حماسة أو قوة إيمان وعاطفة تدفع إلى العلم لدين الله، والتمكين له في الأرض، على نحو ما وقع لنفر من شباب الصحوة الإسلامية اليوم، فقد شاهدوا انكماش العلماء، وغيابهم من الميدان أو الساحة إيثارا

[198] - الحديث سبق تخريجه في الجزء الأول، آفة:: "الفتور".

للعافية، والسلامة، وتقدموا هم لحمل الراية، واعتمدوا على أنفسهم في الفقه أو الاستنباط، فكان الوقوع في آفة التنطع أو الغلو.

7 - تعطيل شرع الله في الأرض :

وقد يكون تعطيل شرع الله في الأرض، وما نتج عنه من انتشار أو ذيوع الشر والفساد وراء الوقوع في آفة التنطع أو الغلو، كرد فعل مضاد لذلك، على نحو ما وقع لنفر من أبناء أمتنا المسلمة في هذا العصر، فقد رأى شرع الله معطلا، والشر والفساد على أشده، فحمله حبه لدينه، وحرصه على مرضاة ربه، أن ينبري وحده للعمل دون أن يكون معه موجه أو مرب، فتردى في آفة التنطع أو الغلو.

8 - الحظوظ النفسية:

وقد تكون الحظوظ النفسية من حب الذيوع والشهرة، أو الثناء والمحمدة، أو المغنم والجاه، من وراء الوقوع في آفة التنطع أو الغلو، من منطلق أن التنطع أو الغلو يحمل في طياته غالبا كل شاذ وغريب، والشواذ والغرائب من بين ما يكسب الذيوع والشهرة، أو الثناء والمحمدة، بل ربما توصل، إلى المغنم والجاه، تطبيقا لمبدأ: "خالف تعرف، وتغنم".

9 - الرغبة في تحقيق مزيد من القرب من الله مع الغفلة عن أبعاد ومعالم الطريق:

وقد تكون الرغبة في تحقيق مزيد من القرب من الله مع الغفلة عن أبعاد ومعالم الطريق، من وراء الوقوع في آفة التنطع أو الغلو.

وقد نقل عن نفر من الصحابة ما يؤكد ذلك، إذ جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم في السر، فلما أخبروا كأنهم

تقالوها، وقالوا: أين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم قد غفر له ما تقدم من ذنبه، ومما تأخر؛ قال أحدهم: أما أنا فأصلي الليل أبدا، وقال الآخر: وأنا أصوم الدهر لا أفطر، وقال الثالث: وأنا أعتزل النساء، فلا أتزوج أبدا، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم، فقال: "أنتم الذين قلتم كذا، وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي، وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني" .[199]

10 - الإغراء بالدنيا:

وقد يكون الإغراء بالدنيا ممثلة في الجاه، والمركز، والمنصب، أو في المال، أو في تذليل صعوبة من الصعوبات، أو تخطي عقبة من العقبات، أو نحو ذلك، قد يكون ذلك كله من العوامل التي توقع في آفة التنطع أو الغلو، ولا سيما إذا كان هذا الإغراء لأناس ليست لديهم الحصانة الفكرية، والنفسية، على نحو ما ذكر الأستاذ المرحوم عمر التلمساني في بعض أحاديثه من أن السلطات في بعض البلاد الإسلامية والعربية قد أقطعت بعض الجماعات الغالية أو التي لديها استعداد للغلو، أقطعتها أرضا لفلحها، وزراعتها، والانتفاع بخيرها بهدف تشجيع التنطع أو الغلو، في مواجهة التوسط والاعتدال الذي عرفت به الجماعة التي هي كبرى الحركات الإسلامية في العصر الحديث.

11 - الكراهية للإسلام مع التظاهر بحبه:

وقد تكون الكراهية للإسلام مع التظاهر بحبه وراء الوقوع في آفة التنطع أو الغلو، على نحو ما وقع من عبد الله بن سبأ اليهودي، ومغالاته في شأن سيدنا علي رضي الله عنه من أنه حل في الإله، أو هو الإله، وأنه لم يمت، وإنما رفع إلى السماء،

---

[199] - الحديث سبق تخريجه في الجزء الأول، آفة:: "الفتور".

وأن الرعد صوته، والبرق نوره وسناؤه، وما تبع ذلك من الغلو في شأن الأئمة، وادعاء العصمة لهم.

12 - الشد ة أو الإكراه والضغط:

وقد تكون الشدة، أو الإكراه، والضغط - سواء من البيت، أو المجتمع، أو الدولة - من بين العوامل، أو البواعث التي تدفع إلى الوقوع في آفة التنطع أو الغلو، على نحو ما وقع لنفر من أبناء الحركة الإسلامية اليوم، فقد رأوا الجلادين يصنعون بهم ما يجلّ عن الوصف، وما جعل الكلاب البوليسية، تتحول إلى عض، وإيذاء هؤلاء الجلادين لأولئك الأبرياء، لا لشيء إلا لأنهم قالوا: ربنا الله، فانقلبوا يحكمون على هؤلاء، بل على المجتمع كله لسكوته على هذا المنكر، أو هذا الصنيع بالكفر، فوقعوا في آفة التنطع أو الغلو.

13 - الهجوم العلني والتآمر الخفي على الأمة الإسلامية:

ذلك أن الأمة الإسلامية في كل أقطار الأرض لقيت، وما زالت تلقي هجوما شرسا عليها، وعلى حرماتها، ومقدساتها، مرة في صورة علنية، وأخرى في صورة سرية أو خفية، ويشارك في هذا الهجوم كل القوى غير المسلمة من يهودية وصليبية، وشيوعية، ووثنية، وذيول هؤلاء وأذنابهم من أبنائنا نحن المسلمين من كل من غرهم بريق المادية في الشرق أو في الغرب، ولا يسع مسلما يؤمن بالله والدار الآخرة، ويوقن بالأخوة الإسلامية، ويعتز بالانتماء إلى خير أمة أخرجت للناس، ويفهم أن المسلمين على اختلاف ألسنتهم وألوانهم أمة واحدة يسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم، وأن من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم -أقول: لا يسعه أن يسمع، ويرى مآسي أمته في كل مكان، وما يلقاه إخوانه هنا وهناك من إبادة مادية تتمثل في التقتيل والتنكيل، أو معنوية تتمثل في التنصير أو على

الأقل : التجهيل والتضليل، ثم يمسي، ويصبح قرير العين، ضاحكا ملء سنه، نائما ملء جفنيه، بل لا بد أن يخامره شعور قوي وأكيد بضرورة التصدي، والمواجهة، وحين يأخذ في التصدي، والمواجهة يصيبه ما يصيب أي إنسان يبصر أمته وقد تكالب عليها الأعداء من كل مكان تكالب الأكلة على القصعة، من التنطع أو الغلو.

14 - التصدر للفتوى والاجتهاد قبل الاستواء وكمال النضج:

وقد يكون التصدر للفتوى والاجتهاد قبل الاستواء وكمال النضج: من ضرورة ربط الجزئيات بالكليات، ورد المتشابهات إلى المحكمات، وتحاكم الظنيات إلى القطعيات، والقدرة على الجمع بين المختلفات عند التعارض أو الترجيح، وعدم الأخذ بظاهر النص، إلا بعد التغلغل في فهم فحواه، ومعرفة أهدافه ومقاصده، قد يكون ذلك من أسباب الوقوع في آفة التنطع أو الغلو في الدين.

15 - نسيان العواقب المترتبة على الوقوع في آفة التنطع أو الغلو في الدين:

وقد يكون نسيان العواقب المترتبة على الوقوع في آفة التنطع أو الغلو في الدين من بين الأسباب التي توقع في هذا التنطع أو الغلو، إذ الإنسان إذا نسي عاقبة الشيء تجرأ على فعله، وتعاطيه، وان كان فيه حتفه وهلاكه، قال تعالى: {ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما} (طه: 115).

رابعا: آثار التنطع أو الغلو في الدين:

وللتنطع أو الغلو في الدين آثار ضارة، وعواقب مهلكة، سواء على العاملين أو العمل الإسلامي، ودونك طرفا من هذه الآثار، وتلك العواقب:

أ - على العاملين :

أما آثار التنطع أو الغلو في الدين على العاملين، فكثيرة، نذكر منها:

1 -كراهية الناس، ونفورهم من المتنطع أو المغالي في الدين:

ذلك أن المتنطع أو المغالي في الدين، إنما هو واقف في الطرف بعيدا عن الوسط، فكرا كان ذلك أو سلوكا، ومثل هذا لا تحتمله طبيعة البشر العادية، ولا تصبر عليه، ولو صبر عليه قليل منهم، لم يصبر عليه جمهورهم، وحينئذ يكون النفور، وتكون الكراهية.

ولعل هذا الأثر هو ما أشار إليه النبي صلى الله عليه وسلم في حـديث أبي مسعود إذ قال: إن رجـلا قال: يا رسول الله، إني لأتأخر عن صلاة الغداة من أجل فلان، مما يطيل بنا، فما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في موعظة أشـد غضـبا منه يومئذ، ثم قـال: "إن منكم منفرين، فأيكم ما صلى بالناس فليتجـوز، فإن فيهـم الضيـف، والكبير وذا الحاجـة" ، ([200]) وما أشار إليه عمر رضي الله عنه بقوله: "لا تبغضوا الله إلى عباده،

---

[200] - الحديث أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب االعلم: باب الغضب في الموعظة والتعليم إذا رأى ما يكره 1/33، 34: وكتاب الصلاة: باب تخفيف الإمام في القيام، وإتمام الركوع والسجود، وباب من شكا إمامه إذا طوَّل 1/180، وكتاب الأدب: باب ما يجوز من النصب والشدة لأمر الله 8/33، وكتاب الأحكام: باب هل يقضي الحاكم، أو يفتي وهو غضبان 9/2، ومسلم في الصحيح: كتاب الصلاة ة باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة في تمام 1/340، 341 رقم (466)، والنسائي في السنن الكبرى: كتاب العلم: باب الغضب عند الموعظة والتعليم إذا رأى العالم ما يكره 3/449 رقم (5891)، وابن ماجه في السنن: كتاب الصلاة: باب من أتم قوما فليخفف 1/315 رقم (984) كلهم من حديث أبي مسعود البدري رضي الله عنه مرفوعا.

فيكون أحدهم إماماً، فيطول على القوم الصلاة حتى يُبغض إليهم ما هم فيه" . ([201])

2 - الفتور أو الانقطاع:

ذلك أن التنطع، أو الغلو قصير العمر، والاستمرار عليه في العادة غير متيسر إذ الإنسان ملول، وطاقته محدودة، فإن صبر يوما على التشدد والتعسر فسرعان ما تكل دابته، أو تحرن عليه مطيته، في السير، ونعني بها جهده البدني، والنفسي، فيسأم، ويدع العمل حتى القليل منه أو يأخذ طريقا آخر، على عكس الطريق الذي كان عليه، أي ينتقل من الإفراط إلى التفريط، ومن التشدد إلى التسيب.
ولعل هذا هو ما أشار إليه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: "اكلفوا من الأعمال ما تطيقون، فإن الله لا يمل حتى تملوا، وان أحب العمل إلى الله أدومه، وإن قل" . ([202]) وحديث ابن عباس: قال: كانت مولاة للنبي صلى الله عليه وسلم تصوم النهار، وتقوم الليل، فقيل له: إنها تصوم النهار، وتقوم الليل فقال صلى الله عليه وسلم: " إن لكل عمل شرة، ولكل شرة فترة، فمن كانت فترته إلى سنتي فقد اهتدى" . ([203])

3 - تضييع العمر، وتبديد الجهد في غير ما طائل ولا فائدة:

وذلك أن جهد المتنطع أو المغالي إنما هو مصروف إلى ثانويات الأمور فكراً أو سلوكاً، دون أصولها، وهو بهذا يضيع عمره، ويبدد جهده في غير ما طائل ولا فائدة، وصدق الله الذي يقول: {قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا} (الكهف: 104)، إذ يفسر الحافظ ابن كثير هذه الآية، فيسوق طائفة من الأخبار عن

---

[201] - الحديث سبق تخريجه في الجزء الأول، آفة الفتور.
[202] الحديث أورده الهيثمي في مجمع الزوائد: كتاب الصلاة : باب الاقتصاد في العمل والدوام عليه 2/258، 259 من حديث ابن عباس مرفوعا بهذا اللفظ وعزاه إلى البزار قائلا: (رواه البزار ورجاله رجال الصحيح).
[203] - الحديث أورده الهيثمي في مجمع الزوائد: كتاب الصلاة : باب الاقتصاد في العمل والدوام عليه 2/258، 259 من حديث ابن عباس مرفوعا بهذا اللفظ وعزاه إلى البزار قائلا: (رواه البزار ورجاله رجال الصحيح).

السلف حول معناها قائلاً: "قال البخاري: حدثنا مجمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن عمرو، عن مصعب، قال: سألت أبي - يعني: سعد بن أبي وقاص -عن قول الله: {قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا} أهم الحرورية؟ قال: لا، هم: اليهود، والنصارى، أما اليهود، فكذبوا محمدا صلى الله عليه وسلم وأما النصارى، فكفروا بالجنة، وقالوا: لا طعام فيها، ولا شراب، والحرورية الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، فكان سعد رضي الله عنه يسميهم الفاسقين، وقال علي بن أبي طالب، والضحاك، وغير واحد هم ا لحر ورية" . ([204])
ثم يبدي رأيه فيها بعد ذلك، فيقول: " ومعنى هذا عن علي رضي الله عنه أن هذه ا لآية الكريمة تشمل الحرورية، كما تشمل اليهود، والنصارى، وغيرهم، لا أنها نزلت في هؤلاء على الخصوص ولا هؤلاء، بل هي أعم من هذا، فإن هذه الآية مكية قبل خطاب اليهود والنصارى، وقبل وجود الخوارج بالكلية، وإنما هي عامة في كل من عبد الله على غير طريقة مرضية، يحسب أنه مصيب فيها، وأن عمله مقبول، وهو مخطئ، وعمله مردود..." . ([205])

4 - التقصير في حقوق الآخرين:

وذلك أن المتنطع أو المغالي إنما يدور في فلك معين من الفكر والسلوك الأمر الذي ينتهي به إلى التقصير في حقوق يجب أن تراعى، وواجبات ينبغي أن تؤدى.
ولعل ذلك هو ما حدا برسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول لعبد الله بن عمرو بن العاص - وقد بلغه انهماكه في العبادة، انهماكا أنساه حق أهله عليه: "ألم أخبر أنك تصوم النهار، وتقوم الليل؟"، ويجيبه عبد الله بقوله: بلى يا رسول الله، ويرد عليه النبي صلى الله عليه وسلم ناصحا، وموجهاً: "لا تفعل: صم،

---

[204] - انظر: تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن ككثير 3/107.
[205] - انظر: تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن ككثير 3/107.

وأفطر، وقم، ونم، فإن لجسدك عليك حقاً، وإن لعينيك عليك حقا، وإن لزوجك عليك حقا، وإن لزورك عليك حقا" . ([206])

5 - القلق والاضطراب النفسي:

وذلك أن المتنطع أو المغالي إنما يريد حمل الآخرين على ما يوافق هواه وما يريد، وما الآخرون بمستجيبين له، ولا بموافقيه فيما يهوى، وفيما يريد، وتكون العاقبة حينئذ القلق، والاضطراب النفسي، بل العدوان على الآخرين، حيث لم تتحقق رغبته، ولم تجب طلبته. وإن الواقع المعاش ليشهد بذلك، حتى إنا لنرى المتنطعين أو المغالين أضيق الناس صدراً، وأشدهم قلقا واضطرابا، وأكثرهم فورانا وغضبا، بل ربما استخداما للقوة، لحمل الآخرين على ما يريدون.

ب - على العمل الإسلامي:

وأما آثاره على العمل الإسلامي فكثيرة، نذكر منها:

1 - الفرقة والتمزق:

ذلك أن المغالين أو المتنطعين؛ لقصور الفهم لديهم، لا يلتقون على رأي واحد، ولا يقبل الآخرون رأيهم، وحينئذ تكون الفرقة، ويكون التمزق، ولعل ذلك هو ما أشار إليه ابن عباس رضي الله عنهما إذ خلا عمر رضي الله عنه ذات يوم، فجعل يحدث نفسه، كيف تختلف هذه الأمة، ونبيها واحد؟ فأرسل إلى ابن عباس رضي الله عنهما فقال: كيف تختلف هذه الأمة، ونبيها واحد، وقبلتها واحدة، وكتابها واحد؟ فقال ابن عباس: يا أمير المؤمنين، إنما أنزل علينا القرآن، فقرأناه وعلمنا فيما أنزل، وإنه سيكون بعدنا أقوام يقرءون القرآن، ولا يدرون فيما نزل، فيكون لكل قوم فيه رأي، فإذا كان كذلك اختلفوا. وفي رواية:

---

[206] - لأثر أورده الشاطبي في الاعتصام 2/183،، وعنه نقل الدكتور يوسف القرضاوي في الصحوة ا لإسلامية بين الجحود والتطرف ص 87.

فيكون لكل قوم فيه رأي، فإذا كان لكل قوم فيه رأي اختلفوا، فإذا اختلفوا اقتتلوا. فزجره عمر، وانتهره على... فانصرف ابن عباس، ونظر عمر فيما قال، فعرفه، فأرسل إليه وقال: أعد علي ما قلته، فأعاد عليه، فعرف قوله: وأعجبه . ([207])

2 - كثرة التكاليف، وطول الطريق:

ذلك أن التنطع أو الغلو مكروه منفر، الأمر الذي يعطي المتربصين بالعمل الإسلامي الفرصة لتوجيه الضربة بعد الضربة من أجل القضاء على هذا العمل أو على الأقل إجهاضه بحجة التشدد، أو التزمت، وحينئذ تكثر التكاليف وتطول الطريق.

3 - الحيلولة دون كسب الأنصار:

ذلك أن العنف أو الشدة التي هي من لوازم التنطع أو الغلو، تحول دون كسب الأنصار، فقد جبلت النفوس على حب من أحسن إليها، ورفق بها، وعلى بغض من أساء إليها، وقسا عليها، وحسبنا أن نجاحه صلى الله عليه وسلم في دعوته، ما كان إلا بالرفق، واللين: {فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك} (آل عمران: 159).

خامسا: علاج التنطع أو الغلو في الدين:

وعلى ضوء ما قدمنا من أسباب للتنطع، أو الغلو في الدين ندرك طريق العلاج وتتلخص في الخطوات التالية:

1 - تطبيق حكم الله في الأرض: عقيدة، وعبادة، أخلاقاً، وتظيماً، أو تشريعات، فكراً وسلوكا، وعلى كل المستويات: الفردية، والجماعية، الشعبية والقيادية، فإن هذا من شأنه أن

[207] - انظر في هذه الآفة: الصحوة الإسلامية بيين الجحود والتطرف للدكتور يوسف القرضاوي بتصرف كثير، والتطرف المنسوب إلى الإسلام للدكتور يحيى هاشم بتصرف كثير.

يشجع الميول الفطرية الكامنة عند هؤلاء، فيستريحوا من القلق والاضطراب النفسي، بل من محاولة التنفيس عن هذا القلق وذلك الاضطراب بواسطة العنف والقوة. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنه سيقضي على كل مظاهر الشر والفساد التي تثير هؤلاء، وتميل بهم نحو التنطع أو الغلو: {فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمـون} (الروم: 30)، {ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون} (المائدة: 50)، {اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون} (الأعراف: 3)، {فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى} (طه: 132)، {فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون} (البقرة: 37).

2 - تشجيع العلماء العاملين، والدعاة المجاهدين، على أداء دورهم، والقيام بواجبهم نحو ا لإسلام، والمسلمين بعامة، والمعروفين بالتنطع أو الغلو، وذلك برفع سوط الملاحقة، والمتابعة من فوق ظهور هؤلاء ومنحهم حرية التعبير عما تفرضه عليهم الأمانة التي كلفهم الله - عز وجل - بها، وحملهم إياها، فإن ذلك له دور كبير في القضاء على التنطع أو الغلو في الدين.

3 - التبصير بفقه العبودية، والدعوة إلى الله، والفتوى، من ترتيب الأولويات، ومن معرفة بمقاصد الشريعة، وكلياتها، ومن فهم للنصوص في ضوء بعضها البعض، ومن إلمام بمراتب الأحكام، وطريق ثبوتها، والعلاقة بينها عند التعارض، ومن رعاية لأدب الخلاف، وعن العلم بقيم الأعمال، ومراتبها، ومراتب المأمورات، والمنهيات، بل مراتب الناس مع الأعمال، وتقدير ظروف الناس، وأعذارهم، ومن الإلمام بسنن الله في خلقه: الكونية منها، والشرعية، ولا سيما سنن وشروط النصر، فإن هذا التبصير كافي في القضاء على التنطع، أو الغلو، وقد أمر الله - عز وجل - بهذا فقال: {ادع إلى سبيل ربك بالحكمة

والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي أحسن} (النحل: 125)، {قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني} (يوسف: 108).
4 - دوام النظر في التاريخ البشري بعامة، والإسلامي بخاصة، فإن هذا التاريخ حافل بالنماذج الحية من المتنطعين أو المغالين في الدين والآثار السيئة التي جناها هؤلاء من وراء التنطع أو الغلو، وهي حافلة كذلك بكيفية التعامل مع هذه الظاهرة والقضاء عليها ومن أبرز هذه النماذج: أهل الكتاب، الحركة السبئية، الحركة الشيعية.
5 - معاملة هؤلاء المتنطعين أو المغالين في الدين بروح الأبوة، والأخوة من الحنو، والرحمة، والحب، والشفقة، فنخالطهم، ونتعرف عليهم من قرب : كيف يفكرون، وكيف يشعرون، وكيف يسلكون، وكيف يتعاملون، ولا نحكم على الكثرة بحكم القلة، ولا على الواحد بما يقع منه من تصرف، أو تصرفين، وإنما بمجموع تصرفاته، فمن رجحت كفة حسناته على كفة سيئاته، فهو من أهل الخير، كما يعامل الله سبحانه عباده: {فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون} (المؤمنون:102).
وألا نبالغ في تصوير، أو مخالفات هؤلاء، على حين نسكت عن أخطاء غيرهم من كل ما يعرف بالتفريط، أو بالتطرف اللاديني، وأن نشيع جو الحرية، ونرحب بالنقد، ونحيي روح النصيحة في الدين، ونقول ما قال عمر رضي الله عنه: مرحباً بالناصح أبد الدهر، مرحبا بالناصح غدواً وعشيا.. رحم الله امرأ أهدى إلي عيوبي.
ونحاكيه عمليا، إذ قال له رجل: اتق الله يا أمير المؤمنين، فأنكر عليه بعض الحاضرين، ورد عليه عمر بقوله: "دعه، فلا خير فيكم إذا لم تقولوها، ولا خير فينا إذا لم نسمعها".
وأن نتجنب اللجوء إلى القوة، والبطش لتصفية هذا الفكر، ومطاردة أهله، فإنه يختفي بالاضطهاد، ولا يموت، ويكمن كمون النار في الكبريت، ولا يزول.

6 - لفت النظر إلى الآثار والعواقب المترتبة على التنطع أو الغلو، سواء منها على العاملين، أو على العمل الإسلامي، فلعل ذلك يساعد في التخلص من هذه الآفة، ومجاهدة النفس لئلا تبتلى بها مرة أخرى.
7 - شغل أوقات الفراغ بالنافع المفيد من خلال وضع وتنفيذ برامج تعليمية وإعلامية، وترفيهية، وتدريبية، بحيث تتجاوب هذه مع الفطرة ولا تتعارض مع شرع الله - تبارك وتعالى - فإن هذا من شأنه أن يمتص الطاقات الكامنة عند هؤلاء، فلا يبقى هناك مجال لتنطع أو غلو . ([208])

[208] - انظر في هذه الآفة: الصحوة الإسلامية بيين الجحود والتطرف للدكتور يوسف القرضاوي بتصرف كثير، والتطرف المنسوب إلى الإسلام للدكتور يحيى هاشم بتصرف كثير.